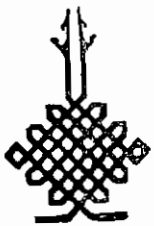

الإبداع
الفني
قصص قصيرة

هـذا الصبي

الاخراج الفنى : ألبير جورجى

هذا الصبي

حمدي عماره

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

الإهـــداء

الى أبناء مصر ·· بلادى

- الساهرون من أجل الخير
- المحترقون من أجل الغير
- الشرفاء المخلصون من أصحاب القلم
- الصابرون حتى يقبضوا على الأمل
- الى شباب هذا الجيل المنصهر من أجل الدفع والنهوض

اليهم جميعا ··

بكل حب وايمان ·· وبكل فخر واعزاز

أهدى اليهم ماخطه قلمى ·· وماسطرته

بأحاسيسى ·· ودمى ·· ودموعى ·

حمدى عمارة

الموديل

من « أتيليه » الكلية تتصـــاعد روائح متباينة من الزيوت والألوان والأجســام أنفاس تعلو وتتهدج ·· طاقات تحترق ·· نفوس تهدأ لتصخب من جديد ·· فى « الأتيليه » حوامل كثيرة عليها لوحات ··· يموج بينها شـــباب فى مستهل طريق الفن الشاق ·· الألوان على « البلتات » ·· تذخر بها ·· تحكى حكايات ·· والفرشات فى أيدى الشباب تعمل فى صمت ·· تنقل ما ارتسم على وجوههم ·· وما تحسه مشاعرهم ·· صراعات تبثها نفوسهم تترجمها أصابعهم فى رقة وانسياب ·· أو فى ثورة وهياج ··

أمام احدى اللوحات ·· كان يقف حسام أحد هؤلاء الشباب ·· وحسام صـــغير الحجم ·· نحيف ·· وســـيم ·· رقيق كالياسمينة ·· يدنو من لوحته ·· يبتعد قليلا ·· يبتعد ويبتعد ·· يتمايل ·· يلوح باشارات مبهمة ·· يعبر بأصابعه وفرشاته وعينيه ·· يعبر بكل جوارحه ·· لوحته أمامه ·· « الموديل » خلف اللوحة ···

« الموديل » .. فتاة جميلة .. رشيقة .. فى حركتها تمثل « فينوس » .. لكنها نائية عن « الاتيليه » .. وعن معقل الفن .. فقط عيناها على فنانها الصغير .. جسدها العملاق ونهداها النافران .. أمام الصغير رهن اشارته ..

... الصمت وحده يتكلم .. والفرشاة تحكى .. والعقل يسرح .. هذه الفتاة .. هذا الجسد العملاق اختارها نموذجا منذ ساقتها قدماها الى هذا المعبد .. يتخطفها من زملائه .. يغير عليها .. ولذا يحقد عليهم .. وجهها ها هو يتبدل كل برهة .. فمرة يراه وجه أمه .. ومرة وجه أخته .. وها هو الصغير يختلس النظر الى عيون زملائه .. يتحقق فى كيفيتها .. يدقق فى كميتها .. يحول بصره الى « فينوس » .. يرسمها كما يريد .. وكما تتوق اليه نفسه .. وكما يحس .. لكن « الموديل » .. « فينوس » التى أمامه حية تتنفس ... خداها حمراوان .. بلون الحياة .. تستطيع أن تنحنى أو تميل .. أو تصدر حركة .. أجمل من لوحته .. تحكى وتحكى دون أن تتكلم فالصمت وحده خير معبر ـ لوحة الخالق تفوق لوحتى جمالا وروعة .. انى مفتون .. مسحور كأنى لست أنا ..

« الموديل » تقرأ أحاسيسه وتدرك معنى نظراته .. تتأمل عوده الذى يذبل .. وعينيه التى تتسع ويشتد بريقها .. أرسلت بطرفها للفضاء البعيد .. تظل فترة .. يرجع بصرها وهو حسير .. تنظر حول قدميها .. تطرد فكرة من رأسها .. تنتزعها .. تعود لتمثل « فينوس » .. ترى ابتسامته الخائفة .. التقى نظريهما لحظات .. أشاح بوجهه فى ناحية أخرى .. عاد يتأملها .. تبتسم ويبتسم .. انها ترتاح .. بل تستمتع بالوقوف أمامه .. لا تمل ولا تتململ .. تشعر كأنها أميرة منذ أن أتت

مترددة الخطى ·· خائفة ·· وكانت الدنيا قد اسودت فى رؤيتها ·· وسدت الطرق فى وجهها ·· أتى زميل يدوس المحراب ·· أوقف بصوته الأحاسيس والانفعالات :

ـ ألم تنته بعد ؟ !

الصغير ينظر الى زميله شزرا ·· لا يجيب ·· والزميل يكرر سؤاله ·· ويجيبه باهمال :

ـ عليك بالانتظار ·

ـ الى متى ؟ ؟

ـ لا أعرف ·· لحين ·· لحين أن أنتهى ··

تفرس الزميل فى « فينوس » ·· نظراته تعريها ·· تذبح حياءها ·· تمزق عفافها ·· هكذا تشعر ·· وهكذا يشعر الصغير ··

تطاير الشرر من عينيه ·· ثم تفوه الزميل منذرا :

ـ سآخذها منك بعد ساعة ·

ساعة ·· ساعة واحدة قبل الاعدام ·· ماذا تفيد ساعة ؟ ·· وماذا تفيد كل ساعات العمر ؟ ؟ ·· يراها أخته ·· يراها أمه ··

يسلبونها منى بعد ساعة واحدة ·· تمتم متحديا :

ـ مستحيل ·· لن يحدث ·· لن يحدث ··

النار فى صدره تتأجج ·· « الموديل » تقرأ ما زالت ·· الرهبة تسرى فى عروقها ·· ماذا بعد مضى الساعة ؟ ان هذا الصغير لا يمس حياءها ·· والأخير سيعريها مثلهم جميعا ·· فى عينيها قرأ الرعب والفزع ··

مـرت الساعة أقل من لحظة .. جـاء الزميل تحمل شفتاه ابتسامة ساخرة .. ثغش الديك عن ريشه .. وكشر عن أنيابه .. اخترقت مخالبه الأرض .. فتح طاقتى أنفه وضـــغط على ضروسه .. وخرجت من فمه كلمات الرفض كالطلقات ... شقت الكلمات الصمت ورنت فى المكان .. ترك كل ما بيده .. التفوا حولهما .. الدهشة تعلوهم جميعا .. الزميل يوجه اليه نظرات الاستخفاف والتهكم .. أخالها ملتفحة بملاءة بيضاء .. تنأى عنه كأنما تودعه .

تأملها فى لهفة ولوعة .. لوى رأسه ناحية زميله الساخر .. كاد أن يهجم عليه الا أن الزمـــلاء أحالوا دون رغبته .. اندفع حسام ناحية لوحته حين تذكر شيئا .. أدارها فأخفى « فينوس » عن العيون .. هدأ قليلا .. تناقلت الأنظار والتقت النظرات .. انتشرت الهمسات .. قذف الزميل بفرشاته وخرج من «الاتيليه» والكلية .. فض النزاع فركن كل الى عمله .. تنفست «فينوس» براحة بعـد أن زال ما جثم على صـدرها .. تفرست فى مالكها الصغير .. بعوده النيل وعينيه ذات البريق .. انه بطل عملاق .. استطاع أن ينتشلها من بين أنياب الوحوش .. كم ترتاح اليه .. تعانقت عيناهما .. اتسعت شفتاه بابتسامة عريضة .. طأطأ رأســه فى حياء .. شعره أســود .. يلمع مثل عينيه .. شعرت كأنها سعت اليه .. لمست شعره وتحسسته براحتها .. ركعت على ركبتيها .. وأطلت فى عينيه ..

انصرف الزملاء واحدا تلو الآخر .. انصرف أيضا «الموديلات» .. وعامل « الأتيليه » تحطمت كل القيود .. بحـــرية تتنفس « فينوس » .. أطلقت لنفسها العنان .. الصغير الوسيم ما زال عملاقا تراه .. يقلب ألوانه .. « الأتيليه » صامت .. واللوحات

صامتة ·· رفع رأسه « فينوس » رائعة ·· جذابة ·· فاتنة ·· رائحة الألوان فى أنفه ·· قصد اليها بخطوات متثاقلة ·· دنا من لوحة الخالق ·· اصطدمت عيناه بمصادر الفتنة وأسباب الجمال ·· الشيطان يدخل « الأتيليه » ·· انصرف الجميع ·· فى المكان شاب وفتاة ·· رجل وأنثى ·· اتسعت ابتسامة الشيطان ·· فهو الثالث الجبار ·· حتما سيكتب له النصر والغلبة ··

ـ سيكون ألعوبتها ·· وهى ألعوبتى المفضلة ··

دنا الشيطان مستبشرا ·· الصغير يتأمل وجه « الموديل » ·· لم ير وجه أمه ·· الشيطان يحوم حوله لم ير وجه أخته ·· بل رأى « فينوس » ·· ما زال يرى وجه « فينوس » ·· نفسه أيضا تتحرك ·· رائحة غريبة تملأ أنفه ·· يفكر ويفكر ويعمق التفكير ·· نحا الشيطان الى « فينوس » ·· الصغير كالمسحور ·· الشيطان يبتسم ·· يحوم حول « فينوس » ·· تبعه حسام ·· حام حولها مثله ·· خصلات شعرها نائمة مستسلمة ·· الشعر أسود مسترسل ·· تأتى نسمة ·· الخصلات تتماوج ·· الشيطان يضحك ·· رائحة تتسرب فى كيان الصغير ·· الرائحة مخدرة ·· المكان صمت يصرخ ·· « الموديل » أمامه مستسلمة لا تتحرك ·· طاف حولها ثم طاف ·· « فينوس » لا تتحرك ·· ذهبت رائحة الألوان ·· طغت رائحة الأنوثة ·

الصمت والاستسلام ·· النفس والشيطان ·· رائحة الأنوثة الطاغية ·· والشباب « فينوس » تتلوى فتبعث فى جسده النيران نظر فى « الأتيليه » ·· « الموديل » تتلقفها الأيدى ·· تنهشها العيون ·· النظرات مجنونة محمومة ·· سقطت حبة عرق فى عينيه ·· أغمضها ·· « الموديل » فتاة عارية ·· تتحسسها الأيدى لتدرك ملمسها ·· هكذا قال الفن ·· سكن عن التفكير ·· لمعت

عيناه ·· فى الشوارع فتيات ·· لسن « موديلات » يتسكعن ·· يتقافزن فتتراقص نهودهن ـ لا يخفين من أجسادهن سوى القبيح ·· شبه عاريات ! ·· على الشواطىء عاريات مثيرات ·· خلف الجدران عاريات فاجرات ·· « فينوس » من الملابس عارية بحكم الأيام ·· تلبس لباس الشرف ·· هكذا يشير ماضيها ·· وهذه عيناها تؤكد ·· من أجل العيش أتت « فينوس » ·· من أجل أن ·· أن تلتقى ·· انمحت ابتسامة الشيطان ·· النفس الأمارة محتجة ·· يد الشيطان تمتد الى مخالب النفس ·· يتآبطان ·· الصمت يسود المكان ·· رائحة الأنوثة طاغية جبارة ·· النظرات هائمة حالمة ·· قطرات العرق تتصبب من جسد « فينوس » ·· الشيطان يحوم حول « فينوس » يدعو الصغير ·· « فينوس » مطأطئة الرأس لا تبدى حراكا ·· يلمحها الصغير ·· يرفع رأسها ·· دموع « فينوس » تتألق فى عينيها ·· الشيطان والنفس على أشدهما ·· فى عينى « فينوس » قرأ العتاب ·· قطرات العرق تسيل براقة على جسد « فينوس » ·

جف حلق الصغير ·· الشيطان يقف بينهما ·· « فينوس » ترتعد ·· يتأملها الصغير ·· يراها أخته ·· يغمض عينيه ·· يعاود البصر فيراها أمه ·· يبتسم الفنان وتبتسم « فينوس » ·· الشيطان ثائر ·· الصغير يطبع قبلة على جبين « فينوس » ·· دموعها تتدفق ·· جمدت النفس ·· طأطأت رأسها اجلالا ·· تباعد الشيطان قبل أن يحرقه لهيب الحب ·· اختفى ·· هدأت نفس الصغير ·· ضحكت « فينوس » من الأعماق ·· استنشق الصغير النسيم ·· زالت الرائحة الغريبة ·· يتنسم رائحة الزيوت والألوان ·· نظر فى « الأتيليه » ·· اصطدمت عيناه باللوحات ·· كل تحمل « فينوس » ·· اندفع اليها ·· مزق كل لوحة ضمت

« فينوس » .. ذهب الى لوحته .. تأملها .. نزعها برقة .. لفها برفق .. جذب يد « فينوس » .. خرجا معا من « الأتيليه » ومن دار الفن ...

فى صباح اليوم التالى كانت عيون الطلبة تتنقل فى ذهول بين الصغير المبتسم .. وأشلاء اللوحات ..

وأحدا لم ير « فينوس » بين الموديلات ..

من قتلها ؟!

التجمع غير عادى فى « الوسعاية » .. فالحادثة تبعث على الفضول .. بل تثير الدهشة لحد الذهـــول .. الجريمة تمس الشرف .. والفاعل مجهول .. ودوافع الجريمة خافية على معظم الأهالى .. القلة يدركون الدوافع الحقيقية لها .. ما زال أهالى القرية يتوافدون أمام بيت الحاج شهاب .. والحاج شهاب .. لم يكن عمدة البلدة .. ولا واحد من شيوخها .. الا انه ذو سعة .. ومع ذلك فهو دائم الادعاء بالفقر والتظاهر بأسبابه .

المتجمهرون بلا دعوة ولا موعد .. وبلا حرج .. وقف منهم من وقف .. وافترش الباقون الأرض .. لا كلام بينهم ولا همس .. القلـق وحـده يساورهم ويسيطر عليهم .. تعبث أصابعهم بسبحهم أو فى لحاهم .. كل فى واديه مع نفسه وتصوراته .. والأفكار فى عقولهم تتخبط بلا ضابط ولا رابط .. وبلا حدود .. فالجريمـة بشعة .. لم تحـدث بالقرية من قبـل .. ولم يسمع بها أحد .

« الوسعاية » على الاطلاق ·· يشملها الصمت والوجوم ·· الا من صرخة تنطلق كل حين من داخل البيت ·· يعقبها غمغمة·· فى العيون لا دموع ولا صراحة ·· والمصيبة هائلة ·· وأهـــل الفتيلة وعلى رأسهم الحـاج شهاب والدها ·· جميعا حائرون ·· فكيف يلاقون الأهـــالى ؟ ·· أيلقونهم معزون مواســـون ·· أم شامتون ؟ ·· ومن بينهم القانصة الذين لا هم لهم الا اصطياد الأخبار واذاعتها مورمة ·

انقسمت الآراء فى الأذهان ·· فالعصبيون يقدرون القتيلة مذنبة فى حق نفسها وحق الأهالى جميعا ! والقلة العاقلة يتراءون بنفس المشاعر ·· لكنهم على ثقـة من براءتها ·· وأنهـا ليست مسئولة عن موتها بتلك الطريقة الشنيعة ·· ولديهم الدليل ·· لكن لا متسع للجدال ·· الأهم أن أهل القتيلة لم يكن فى قدرتهم أن يرفعوا رءوسهم أمام أهل القرية ولا أن يجهروا بما يعتمل فى نفوسهم وما تمليه عقولهم ·· والأمر أن هذه المشاعر وتلك الحادثة ·· ستلتصق بهم لأمد لا يعلم مداه الا الله ·· فينساها الناس أو يتناسونها ·· أو أن تحدث كارثة أخرى فتجتذب العقول ·· وتصبح شغل الناس الشاغل ·· الحقيقة ·· أنها لن تنمحى من ذاكرتهم ·· وقد تأتى المناسـبة فيتحاكون كما تتصـــور أخيلتهم ·· أى أنها ستصبح سبة فى جباه أهل القتيلة ·· قصر الزمان أم طال ·· يتوارثها الأبناء فالأحفـــاد ·· وقد يطلق على العائلة لقبا يشير الى الحادث ·· وبعد أجيال يذكر اللقب وينزوى الحادث فى طى النسيان ·· ليصـــاغ من جديد بعد اضافة أو حذف أو اختلاق ·· كما يروق الراوى طالما المستمعون ينصتون فى لهفة وشغف ·

منذ ساعتين ·· قامت القرية عن بكرة أبيها لرؤية القتيلة ·· تسابقوا وتزاحمـوا لرؤية جثتها وقد انحسرت ملابسها عن

ساقيها وفخذيها ·· وتمزق جلبابها فتدلى نهدها ·· والرأس مقطوعة بالقرب من الجثة ·· أوضح ما بها عينان ذاهلتان ·· وفم مفتوح ·· والشـــعر يفترش مساحة كبيرة من رقعة الدم حولها ·· المنظر بشع بشع ·· صدرت شهقات من الأعماق ·· شقت الصرخات الأفق ·· هوت أجساد ·· انطلقت السيقان هاربة ·· « طرقعت » ألسنة فى تأفف وامتعاض ·· !

حملت الجثة ومن خلفها زحف الزاحفون ·· جموع غفيرة شيعت جثة « نعناعة » ·· من الحقول حتى مشارف القرية ·· تسرب الكثير الى بيوتهم حيث يحلو لهم التشـــدق دون لائم أو معارض · تاركين أهل القتيلة يكابدون مرارة الفضيحة ·· وخبر الحادث كانت قد أشاعته الصبية « نعيمة » ذات الاثنى عشر ربيعا ·· ففى الحقل بين عيدان الذرة ·· جمدها الخوف من هول ما رأت ·· شدها الفضول وقرابتها لنعناعة ·· ومن بين الأعواد وقفت عيناها على ما جرى لقريبتها وبنت جنسها ·

« نعناعة » ابنة الحاج شهاب ·· أملح بنات القـــرية ·· وردة حمـــراء يانعة ·· على أوراقها قطرات الندى ·· تبرق فى عيون الفتيان ·· أولئك الذين تقدموا واحدا بعد الآخر لطلب يدها ·· ردت أياديهم جميعـــا ·· رفضهم والدها بحجة صغرها على الزواج ·· وبأنها تعين أمها فى شئون المنزل ·· وتعينه فى أمـــور الزراعة ·· أليست كبرى أولاده ؟ ! ·· ولم يخف على الفتيان مقصد الحاج شهاب ·· اذ أراد أن يرفع ســـعرها كأنها بهيمة ·· ولتحوم حولها العيـــون لحين مجيء صاحب الأطيان ليخطب ود الحاج شهاب فى جوهرته النادرة ·· فيغتنم الفرصـــة ليحصل على الكثير فيسد غائلة طمعه وجشعه ·· وليحقق فراسته فقد رآها بعين المستقبل عروسا فاتنة تخلب الألباب ويجنى من

ورائها الخير العميم ·· وقد أخفى سره فى نفسه ·· ولم يطلعه حتى على زوجته أم « نعناعة » ·· وكانت حين يستبد بها القلق بعد كل رفض ·· كان ينهرها ·· قائلا لها فى دهاء :

ـ ان ابنتنا زينة بنات القـــرية ·· وما رفضت الا انتظارا للعروس المناسب الذى يصونها ·· أنرمى لحمنا يا « ولية » ؟

وكانت تنفرج أسارير الأم ويطمئن بالها حين يهتف بسـؤاله الأخير ·· وتراه رجلا عاقلا وأبا حنونا ·· ولم ينقطع الحاج شهاب عن تدليل ابنته واطراء جمالها أمام الجميع ·· وكان هذا المديح يزيدها ثقة ·· وكانت حين تنفرد بنفسها ترسم لفتاها صـــورة بديعة ·· وتراه بعينى خيالها قادما ليخطفها على حصانه المطهم ·· وانتظرت « نعناعة » ·· وانتظر الأب ·· طال انتظارهما وما زال حلمهما فى غيابة المجهول ·· والأم يشتد قلقها على ابنتها التى اســتوت وحان قطافها ·· وقد فضلت السكوت حتى لا يرميهـا زوجها بالحماقة ·

كانت هناك بعض العيـــون تتفاهم وتتشاور ·· تلتقى فى الخفاء لتدبر أمرا ·· تقاربت اللقاءات ·· دارت مناقشات حول أفكار ·· تجسدت أخيرا فى فكرة بعينها ·· درست وحبكت ·· ولم يبق الا التنفيذ على وجه السرعة ·· وقبل أن يأتى الفارس الذى طالما راود خيال « نعناعة » ·

منذ أيام والعيون تترصد « نعناعة » ·· تخـــرج معها الى الحقل لتعـــود معهـــا ·· من بعيـــد ترقبها ·· وتترقب اللحظـــة المناسبة ·· الحاسمة ·

لم تقصد نعيمة رؤية الحـــادثة المروعة ·· لـــم تتربص بين أعواد الذرة من أجل الكشف عنها ·· فقط ساقها القدر اليها ·· نفس القدر الذى أعمى الذئاب عن رؤية نعيمة ·· وكان من الممكن

أن تتغير صورة الواقعة بشكل أو بآخر .. الا أن نعيمة شاهدت الواقعة .. فقد سمعت خشخشة عيدان الذرة .. التفتت لتقع عيناها على ثلاثة من الفتيان .. اتجهـــوا ناحية « نعناعة » التى ما زالت تحلم تحت السقيفة .. يهجمون عليها .. يغلق أحدهم فمها .. والثانى يحكم وثاقها بيديه .. ليصنع الثالث ما بدا له فى نهم ووحشية .. تنقلوها بينهم فى يسر .. ثلاثة نمـور جائعة انقضوا على غزالة وديعة .. لم تقاوم .. تنقلت عيناها بينهم فى توسل وضراعة .. وكم سهلت المهمة حين استسلمت وأغمضت عيناها وتراخت يداها .. شربوا حتى الثمالة .. وكانت المفاجأة .. حين قلبوها عبثا .. التقت عيونهم .. تفاهمت سريعـا .. أخـرج أحـدهم مديته لم يتـوان عن فصـل عنقها بقصـد التغميض والتضليل .. وفروا تاركين جثتها .. وقلب نعيمة يتخبط فى صدرها نقلت قدمها بصـــعوبة .. مشت فى حرص حتى مكان « نعناعة » .. ندت منها صرخة .. لوت رأسها وأسرعت شطر القرية تحكى لكل من يصادفها ... وقد حملت جثة « نعناعة » .. بأيادى عبثت بها .. ولم ترحمها فى موتها .. زحفت الجماهير .. الصمت لجام يعقد ألسنتهم .. اجتمعوا عليه .. وتفرقت انفعالاتهم وتباينت أفكارهم وكـــل خنق فكرته وحبس انفعـــالاته لحين العودة ...

دفنت جثة « نعناعة » .. والمتجمهرون ما زالوا أمام البيت الكبير .. الصمت يلفهم .. والوجوم يحتويهم وكل يخشى النظر فى عيـــون الآخرين .. ناسين جميعا قاتل « نعنـــاعة » .. الحقيقى ..

ولم يمض يومان بعد تلك الحادثة فتختفى نعيمة .. ويطول البحث عنها .. وبعد ثلاث أخر تطفو جثتها على سطح المصرف .. وقد فقدت ما فقدته « نعناعة » .. !!

عم صالح

فى منعرج الحارة ·· ظهرت مقدمة عربة صغيرة ·· الحارة فى حى بولاق العتيق ·· والعربة بيضاء اللون ·· زينت برسوم لأطفال سعداء ·· فى أياديهم أقماع « الجيلاتى » كشموع عيد الميلاد ·· العربة عربة « جيلاتى » ·· خلف العربة ·· عم صالح ·· رجل طلق المحيا ·· يرتدى قميصا وسروالا اختارهما مزدحمان بالنقوش ·· وكأنهما صنعا خصيصا له ·· على رأسه « طرطورا » ·· زاخر بالألوان ·· واللوحة والعربة وصاحبها تكوين بديع ·· والألوان بها زاهية ·· لوحة تجتذب النظـــر ·· وتبعث على الابتسام ·

يدفع عم صـــالح العربة فتستوى فى مقدمة الحارة ·· يتوقف ·· على طبلته المشدودة والمربوطة بكتفه ··تدق أصابعه دقات عالية ميزة ·· راقصـــة ·· تبعا لها ·· يلف رقبته دائريا ·· لتدور الكرة المدلاة فى نهاية الطرطور ·· مشهد جميل ·· عم صالح يطبل ويرقص ·· وأيضا ترتفع عقيرته بالغناء ··

الحارة مثل كل حارة ·· بها أطفال يلعبون ويمرحون ·· الى أسماعهم تأتى دقات الطبلة المحببة اليهم ·· نغمات ساحرة تدق فى عالمهم الجميل ·· تهز أوتار قلوبهم ·· فيدعون ألعابهم وأسباب مرحهم ·· ويهرعون قاصدين عم صالح ·· تسبقهم صيحاتهم السعيدة ·· يلتفون حول عم صـــالح وعربته ·· تمتد أياديهم الصغيرة بقروشهم ·· يأخذ كل قمعه ليلعق منه فى نشوة ·· عم صالح ما زال يغنى ممتدحا بضاعته التى تحلو فى أفواه الصغار ·· ألا يسهر طول الليل ليتقن صنعها ·· وأبدا لا تبرح الابتســـامة وجهه الصبيح ·· مشهد رائع يمتهوى السيدات أيضـــا ·· يتفـــرجن عليـــه من الشرفات والأبواب ·· ويدع على أفواههم ابتسامات عريضة ·

عم صالح ·· فقط يبيع فى تلك الحارة ·· فقد عشـــق أطفالها الذين بادلوه الحب ·· وفيها يجبر بضاعته ·· ويعود الى أسرته وجيوبه ممتلئـة بقروش الأطفـــال المبروكة ·· فيحمد الله على فضله ·

يتكرر ذلك المشـهد كل يوم من أيام الصيف ·· عمل من خلال مرح ·· لا تمله الرؤية ·· تعود عليه ناس الحـــارة ·· وخاصـــة الصغار الذين يعرفهم عم صالح معرفته لأبنـــائه ويحبهم محبته لهم ·· ولا يتوانى فى العطف عليهم فيعطى من لا قرش معه دون أن يجرح مشاعره ·· ويعدها زكاة ماله ··

هذ اليوم ·· تغيبت صفاء ·· اكتشف عم صالح تغيبها من أول وهلة ·· فهى أول من يستفتحه ·· وصفاء لها منزلة كبيرة لديه ·· وكم يعجب بابتسامتها النقية التى تشع فى قلبه الراحة وفى نفسه التفاؤل ·· انتظر وانتظر ·· استشعر قلبه الرهبة ·· وبان الحزن فى نبرات صوته ·· ولم يعد يرقص ولا يغنى وتوقفت

الكرة المدلاة من « الطرطور » .. واستمر يناول الأطفال الحلوى وفى حلقه مرارة .. وعقله شـــاردا .. وانتهت البضاعة بانتهاء الحارة .. وأيضا لم تأت صفاء .. ثم ودع عم صالح الحارة بقلب محزون .. وقد قضى ليلة قلقة مسهدة .

فى اليوم التالى .. أيضا لم تستفتحه صفاء .. لم يطق الصبر .. واستعلم عنها أحـد أقرانها فأجاب أنها مريضة .. وخزه الألم واعتصر قلبه .. وفى التو حجز نصيب صـــفاء من « الجيلاتى » وحين فرغت الحلوى .. لم يعد عم صالح الى بيته .. وانما ركن عربته .. وجمع الأطفال .. واتجهوا جميعا الى منزل صـــفاء .

صعدوا الدرجات حتى شقة صفاء بالدور الثالث .. أتت جلبتهم الى سمع أم صفاء .. كانت فى الردهة فتوقفت وأنصتت .. سمعت نقرات رقيقة على الباب .. تعجبت .. هرولت وفتحت الباب ليزداد عجبها حين رأت عم صالح وركب الأطفال من حوله .. ابتسمت ابتسامة شاحبة .. استغربت حين سأل العجوز عن ابنتها فى حياء .. دعته للدخول .. دخل عم صالح ومن خلفه الصغار وكأنهم باقة من الأزهار .. أصبحوا جميعا حول فراش صفاء النائمة .. أيقظها عم صالح فى رقة .. فتحت صفاء عينيها لترى وجه عم صالح الذى يبتسم فى دلال .. عانقها كما يعانق ابنته .. ابتسمت صفاء .. كانت أولى ابتساماتها منذ أن هاجمها المرض .. فرحت برؤية الأطفال حولها .. أيضا يبتسمون .. اتسعت ابتسامتها فملأت وجهها .. والأم أيضا كانت تبتسم فى تفاؤل .. جو جميل تضفيه أشعة البسمات القلبية الطاهرة .

دار حوار بين صفاء وأصدقائها .. استطاعت أن تجلس .. الحوار طبيعي لطيف .. ضحكت مثلهم .. انشرح صدر الأم حين سمعت ضحكاتها .. التفت اليها عم صالح .. رأى دموع الفرحة على خديها .. وقرأ نظرة امتنان .. سعدت صفاء بنصيبها من « الجيلاتى » وجعلت تلعق فى شوق .

دخل الأب على الصياح والضحكات .. وقف مندهشا .. تلفت ليتيقن أنه فى شقته .. واصل سيره الى مكان الهرج .. اصطدمت عيناه بقمع « الجيلاتى » فى يد ابنته .. كاد أن ينهرها خوفا عليها .. تسمر مكانه .. وقف لسانه حين لمح السعادة تضيء وجه صفاء .. وها هى جالسة فى حيوية وكأنها لم تمرض طوال يومين كاملين .. لم يدر بالابتسامة التى تسربت الى شفتيه .. نظر الى زوجته التى بادلته نفس الابتسامة السعيدة .. ونفس المشاعر .. ولم يدر أيضا كيف اندمج فى مرحهم وفرحهم .

قضى الضيوف ساعة .. مرت كأنها لحظات .. توقف عم صالح ايذانا بالانصراف .. عندئذ وقف الأب .. دس يده فى جيبه .. فهم العجوز أن الأب سينقده أجر شفاء ابنته .. أو .. أو أنه سيعطيه ثمن الجيلاتى ! .. ارتعشت أطراف العجوز .. وارتجفت أهدابه .. وشعر بشيء ثقيل يضغط على قلبه .. مد يده وأمسك بيد الأب قبل أن يخرج شيئا .. نظر الأب الى عينى العجوز .. قرأ فيها معانى كثيرة .. وكلمات :

ـ لقد حصلت على أجرى كاملا .. ألا وهو سعادة هذه الطفلة .. وهذه الأم .. وسعادتك أيها الأب ..

واستطرد عم صالح يقول بعينيه :

ـ لا تضيع هذه المعانى ·· ولتخرج يدك خاوية ·· ولتسلم عـــلى ··

أفاق الأب على يد عم صالح التى تشد على يده فى قوة ··

ودعت الأســرة الضــيوف ·· وكان مع المودعين صــفاء ·· ووعد باللقاء فى الغد القريب ··

ليلة الوداع

طال البعاد ·· وانقطعت رسائلها الرباط ·· وتأججت نيران الشوق ·· نضب الزاد ·· والزاد نظرة وداع ·· قلبى يتململ ·· يدب ·· يدق من الأعماق ·· حتى الفجر سهرت عيناى ·· وسهرت أفكارى وظنونى ·· على وجه السرعة كيف أسافر ·· بل كيف أطير ·· كيف ؟ !

فى لهفة وقلق انتظرت القطار ·· أخيرا جاء ·· انمحت من نفسى اللهفة ·· والقلق ما زال ·· ركبت ·· مرت لحظـــة ·· وأخرى ·· ولحظات ·· ما زال القطار واقفا ! ·· قمت الى الباب ·· على الرصيف ألقيت نظرة ·· عدت الى مقعدى ·· وقفت ثانية ·· ذهبت الى الباب ·· تطلعت الى لا شىء ·· علا صفير القطار ·· يعلن بدء القيام ويعلن فرحتى ·· كأنى أسمع زغرودة أمى بعد غياب ·· زغرودة أمى حادة ·· شهيرة ·· لا أنسى حين ودعتنى ·· ولا أنسى ابتسامتها ·· كانت من بين دموعها ·· تعبيران متضادان

يزحمان صدرها ·· ويطفوان على صـــفحة وجهها فى ابتسامات وعبـرات ·· كانت مرتى الأولى لأفارق أسرتى ·· وأفارقها ·· تحرك القطار دارت عجلة الزمن ·· انزاح الجمود ·· العجلات كأنما تدندن ·· ترسل ايقاعا عذبا ·· من النافذة شاشة القطار ·· تراءى بساط أخضر ·· تلاه بساط أصفر ·· الأشجار تعدو ·· تتسابق ·· تلهو وترقص ·· السـماء مشـبعة بالحمرة ·· الطيور فى الفضاء سابحة هائمة ·· كل الدنيا فرحة بقدومى ·

جاء الليل الأسود ·· فى البساط الأسود أضواء تتأرجح من بعيد ·· تذكرنى بماض جميل ·· وأضواء قريبة تتألق تشير الى مستقبل أكثر جمالا ·· الحياة ترقص معى ·· فى الليل أيضا يداعب النوم الجفون ·· وفى الليل نحلم ·· أرى صورتها بيضاء كأنها مـلاك ·· تبتسم ·· تنـاديني ·· ما أحلى ابتسـامتها ·· وما أرق صـــوتها ! ·· لكأنى أراها حائرة ·· تحـيرها الفرحة لعودتى ! ·· فتحت عينى ·· من النـافذة نظرت ·· فى النافذة تناجينى ·· تهرع الى ·· تعانقنى فى شوق ·· على صدرى تنام ·· تضحك فيضيء الليل الحالك ·· تبكى فأحس الدنيا تزلزل ·· جميلة حين تضحك ·· رائعة حين تدمع ·· لا أنسى يوم عرسنا ·· عانقت الجمال حين عانقتها ·· تنسمت عطرا ساحرا ·· قطرت عيناى دموع الفرح ·· كانت السعادة ترفرف من حولى ·· وكانت الدنيا بين يدى ·· **انسابت من فمها الكلمات :**

ـ ليتنى قطعة حب فأخبو فى قلبك ··

ثم أضافت فى دلال :

ـ و ··· وكيف ترانى ؟

ما أجمـــل ضحكتها ·· ما زلت أســمع رنينهـــا ·· **نظرت فى عينيها العميقتين ·· وعدت أقول لها :**

ـ سأراك بقلبى .. فقلبى يعـــرف كيف يرى .. لأنه أحبـك ..

أطال الله عمرك أيها السائق .. القطار ينهب الأرض نهبا .. لعله سعيد مثلى .. لو تسرع أكثر ! عدت الى الشاشة .. فوق البساط الأسود رأيتها تنظر من نافذة عشنا .. رأتنى .. ها هى تطير الى .. تعانقنى .. دموعها تلسع خدى .. نمت على صدرها .. طال النوم .. تراءت أحداث سعيدة تفوق الأحلام .

سمعت ضجيجا أزعجنى .. انتزعنى من سعادتى .. فتحت عينى برغمى .. كدت أثور على هؤلاء العابثين الماجنين .. لكنى رأيت النهار .. فالدنيا بيضاء زاهية .. من النافذة رأيت القاهرة راسخة شامخة كما ودعتها .. وقف قطار العـــودة الحبيب .. اختطفت حقيبتى .. اندفعت الى الرصيف .. هرولت .. الحقيبة ثقيلة .. لكنى ألوحها ! ..

من بوابة المحطة العتيقة رأيت رمسيس العظيم .. رمز وداعى وعودتى .. ليتنى أغطس فى مائه فأخرج بريئا من وعثاء السفر .. لكن .. لكنها تحبنى .. تعشقنى بما خلفته آثار السفر .. استأجرت احدى العربات .. رجوت السائق أن يطير .. ابتسمت **فى سخرية ولسان حالى يقول :**

ـ مهما أسرعت فلن .. لن تسبق دقات قلبى !

فى العربة أيضا .. رأيتها بجانبى تلبس تاج العرس .. مطأطئة الرأس فى حياء وخفر .. لمست ذقنها وقلب ينبض .. رفعت وجهها .. كم أضاءت ابتسامتها أعماقى .. كانت ليلة عرس أنيقة بهيجة ...

وصلت الى قريتى ·· والدليل نخيلها الباسقة ·· لم أصدق ·· أهذه قريتنا ·· جريت وجريت وجريت ·· حقيبتى ما زلت ألوحها ·· ما زلت أجرى ·· تطلعت الى نافذة عشنا ·· انها مغلقة ·· لعلها نائمة ·· ولا ريب أنها ترانى فى حلمها ·· وحتمـــ ستصحو لتلقانى ·· واصلت السباق حتى باب المنزل ·· طرقت طرقات سريعة ·· سمعت وقع أقدام أمى أيضا تعدو ·· فتحت الباب ·· اندفعت الى أحضانها ·· ضمتنى ·· ضغطت كتفى بحنان ·· بللت دموعها وجهى ·· رأيت اخوتى ·· على جباههم قرأت ملامح الحب والشوق واللهفة ·· وفى عيونهم لمحت الدموع ·· وهذه دمعة من عين أمى لسعنى لهيبها ·· تفرست فى وجهها ·· كانت مسبلة الجفون ·· وعلى خديها تنحدر الدمـــوع ·· وعلى جبينها حبات عرق ·· نحيت الى اخوتى عانقتهم جميعا ·· الا هى ·· فتشت حولهم ·· بحثت فيهم ·· ليست معهم ·· لم تأت لتلقانى ·· عقدت الرهبة لسانى ·· بودى أن أسأل أو أستغيث ·· أين عروسى ؟ ·· أين زوجتى ؟ ·· العيون من حولى تحكى شيئا ·· الصمت خير معبر ·· لعب لسانى دون كلام ·· فماذا يقول ؟! ·· ماذا أقول ؟! ·· أختى الطفلة أيضا تدمع ·· كل يدمع ·· كأنى فى بحر من الدموع ·· تخنقنى طياته ·· وأضيع بين أمواجه ··

أمام السلم وقفت ·· نظرت اليهم كأنى أطلب العون ·· بعينى جبت كل الدرجات ·· ليست على احداها ·· خطوت الدرجة الأولى ·· بودى لو أصعد مسرعا ·· وبودى لو أدع المنزل وأعدو فى الطرقات ·· أو ·· أو أعود الى مكان الرحيل ·· صعدت ·· وقفت أمام باب العش ·· فتحت الباب ·· دق قلبى ·· الدقات عميقة لها صدى ·· رهيبة ·· دلفت هذه الحجرة ·· وتلك ·· وكل الحجرات ·· علا صوتى يناديها ويكرر النداء ·· الصوت

يختفى ·· ينزوى بين قطع الأثاث ·· يتخبط فى الجدران ليعود الى مسمعى ·· جلست على الفراش ·· نظرت الى النـــافذة ·· أراها تسدل الستارة ·· وأنصت اليها :

ـ اننا بعيدون عن العيون ··

على الوسادة ورقة مطوية ·· لابد انها رسالتها ·· تناولتها بيد مرتعشة ·· فتحتها لاهثا ·· قرأت الحقيقة المفجعة ·· لقد مرضت ·· ولن تحتمل ·· كانت رقيقة كالزهرة ·· لم يمهلها ·· لم يرحمها المرض القاسى أذبل الوردة اليانعة ·· وسرعان ما جفت وتقطعت ·· وتكسرت ·· وانتشرت ·· وانزوت فى العالم الآخر ·· علنى أحتمل الصبر لحين ألقاها ·· ألقيت نظـــرة على مخدعنا ·· لم يضمنا سوى ليلة واحدة ·· وكانت ليلة الوداع ·· وا لهفاه ! ··وا حبيبتاه ·· !!

خرجت من الحجرة ·· أغلقت بابها ·· أغلقت باب القبر ·· صورتها على الباب وعلى ثغرها ابتسامة ملاك ·· نزلت على درجات السلم ·· أعد كل ذكرى ·· أتفحص موضع قدميها ·· لكنى لم أر شيئا فقد ملأت الدموع عينى ·· مسحت الدموع ·· فتحت عينى ·· لكنى أيضا ·· لم أر ضوء النهار ·· من بين البكاء والعويل ·· تحسست رأس أختى الصغيرة ·· مسحت دموعها ·· وهمست فى أذنها أن تأخذ بيدى وتسحبنى حيث المقابر ···

الزائر الأسود

الزائر أخطبوط ·· مارد يكتسح ويدمر ·· يحط فى أى لحظة بلا انذار ولا مقدمات ·· أسود فى ظلام الليل ·· أسود فى بياض النهار ·· أحمق ·· يودع فى القلوب الحسرة وفى الصدور احتراق ·· ونادرا ما يلبس لباسا أبيض ·· أو هكذا نراه ·· عندئذ نتمنى أن يأتى فنعد اللحظات ·· ويبعث تثاقله فى نفوسنا الضيق والاختناق ·

كان فى هذه المرة قاتم السواد ·· أشد قسوة وحماقة ·· فقد انتزع الزهرة الوحيدة اليانعة ·· اختطفها ومزقها أشلاء ·· انسل الى المحراب دون استئذان ·· فانه يعلم أنه ضيف ثقيل لا يؤذن له بالدخول ·· المحراب قاعة ترزح بالفنون ·· استطالت يداه لتنتزع روح هذا المكان ·· وغدت التماثيل بلا روح ·· وكانت بالأمس أحياء ·· أو هكذا يراها الفنان ·· الآدمى الوحيد بالقاعة الكبيرة ·

اختفت الجوهرة فاختفى الفنان من عالم الفن .. يوم ويوم وأيام .. وأخيرا عاد .. عاد يفتح « الأتيلييه » أو القبر .. الباب يرسل أزيزا عده نواحا .. يتلاشى الأزيز حين يصطك الباب .. ويعود المكان يرزح بالسكون والجمود .

فى القاعة الكبيرة .. المحتويات مبعثرة .. والأدوات متناثرة على المنضدة .. وفوق الرفوف والأشياء .. متفرقة كأشلاء .. أو أنها رفات .. التماثيل رابضة .. ترنو فيه .. تواسيه .. تتوسل اليه .. أو أنها تعاتبه على أيام الفراق وتبثه الآلام .. المكان رهيب .. بارد .. موحش .. كل شىء تلون بلون التراب .. والفنان تحمل عيناه اللامبالاة .. استقرت نظرته على المقعد الوحيد .. أشاح بوجهه ليقع بصره على أشياء ومواقع بعينها .. تنفس بعمق .. لوى طرفه شطر الباب .. هرولت قدماه اليه .. فتحه .. بقى لحظات .. عاد وأغلق الباب دون العالم الخارجى .. لعله لا يطيق أن يرى أبناء البشر .. ولعله فقد حبه للوجود .. أو أنه لا يجد نفسه الا فى « الأتيليه » .. أيادى وهمية تجتذبه نحو الداخل .. أيضا وقف أمام المقعد .. يتلمس أجزاءه بعينيه .. دنا منه .. التصق به .. براحته تحسس مسنده .. توقفت حدقتاه .. عاد بذاكرته الى الوراء قبل زيارة المارد .. الانفعالات تتبدل وتختلط على محياه .. طغى تعبير اليأس .. مر وقت .. دقائق أو ساعات .. صحا من شروده وقد عقد أمرا فشفتاه مضمومتان .. وفى عينيه اصرار .. أخرج من جيبه زجاجة سوداء .. الزجاجة تلمع وتبرق .. وضعها أمامه .. بريق الزجاجة يشتد فى عينيه .. أخالها تبتسم .. افتر ثغره عن ابتسامة كالحة .. مد يمناه المرتعشة الى الزجاجة .. تأمل الزجاجة .. تأمل يده .. قطرات العرق تنساب على جبهته باردة .. شحب لونه وغارت عيناه .. قرب الزجاجة الى فمه .. الابتسامة الكالحة

تملأ وجهه .. ألقى على المقعد نظرة وداع .. جمدت عيناه من فرط الدهشـــة .. كأنها تجلس على المقعد .. هى بعينها .. قدهـا المشوق .. وداعتها .. حمرة تلون خديها .. هى بسحر عينيها .. بخصلات شعرها المتهدل الفاحم .. ونفس الخصلة العنيدة تتأرجح فى نفور .. كأنما بعثت .. أيضا تفتح فاها .. ويسمع صوتها أكثر رقة وحنانا :

ـ لا تقدم بالله عليك .. لا تضعف .. يجب أن تكون .. من أجلى يجب أن تتمسك بأهـــداب الحيـــاة لتمتد حكاية حبنا العظيـــم ..

وصوته الجاف يجيب فى مرارة :

ـ كيف أحيا بعدك .. والهول يحوطنى والعذاب لا يمهلنى .. والنوم لا يطأ عينى .. الموت راحة ولألقاك وألحق بعالمك .. فلا أكون الا بك .. فأنت روحى .. وكيف أحيا بلا روح ؟

ويعلو صوتها قليلا :

ـ لست ملكا لنفسك .. بل أنت للآخرين .. لقد حرمك الموت منى .. ولكن بموتك ستحرم كل الدنيا منك .. أنت فنان .. والوجود يحتاج اليك .

ـ شوقى اليك أقوى من عزمى .. لا حيلة لى بعد أن أضنانى الشوق .. لا حيلة ..

اقتربت فوهة الزجاجة من فمه حين ملأت صرخاتها القاعة .. وترددت بين الجدران .. كأنما يصرخ عالم بأسره .. ترك الزجاجة بين أنينه .. وبين دموع كانت أبيه سفحتها عيناه .. وأطبق صمت ..

وعاد يستطرد حديث الخيال :

ـ من أجلك كنت أتوق الى الفناء ·· ومن أجلك سأتشبث بالحياة ·

لم يجدها على المقعد ·· تنقل بصره بين الأشياء وفى جنبات القاعة ·· هز رأسه ثم تهالك على المقعد ·· وها هو يصحو من غفوته ·· عيناه تلمعان بالحياة ·· والدماء تسرى فى عروقه حارة ·· وقد بان فى وجهه الجد وافترش ببهاء الأمل ··

قام يعـد لعمل عظيم ·· وانبرت أصـابعه تعبر ·· تنقش أحاسيسه على الحجر الأصم ·· وبين آن وآخر كان يلتفت الى المقعد كأنما يستمد منه الحياة ·· ولأول مرة تزور الابتسامة وجهه منذ أن وورى جثمان حبيبته ·

انبرى يشكل الجثمان ·· أو يعيده للوجود ·· وقد كان حلما يراوده فى محياها ·· وكان الموت أسرع ·· لعنة الله على هذا الاخطبوط ·· الزائر الأسود ·· هذا الذى لا ينبه ولا يحذر ·· بل ينزل كالصاعقة كالحدأة يتخطفنا ·· يقتلع الورود ليدع قلوبا طعينة ·· ولا يفتأ أن يعود فيفتق الجروح المندملة فتعود لتنزف من جديد ··

كانت يداه تبدعان ·· وخياله سارحا ·· وعيناه على المقعد يرى حبيبته كما كانت ·· وعيناها الصافيتان لا تمل التعبير عن الوجد ·· سهر ليالى طويلة ·· ليلة اثر أخرى ·· لا يدرى بالزمن ·· ولا يلتفت لعقارب الساعة ·· ولا يطعم الا بقدر ما يعينه على الاستمرار ·· نسى الدنيا بل هجرها ·· فصومعته هى الدنيا بأسرها ·· مشاعره تتدفق ·· ووجدانه يمنح بسخاء ·· وأصابعه تتقن صنع أحاسيسه ·· تتلمس ملامحها ·· وتهندم خصـلات

شعرها ·· وتريح الخصلة النافرة على صدرها ·· يروح ويغدو ·· يدور حولها ثم يدور ·· مسترسلا فى ابداعه دون كلل أو عناء ·· وعيناه ما زالت تتناقلان بين طيفها المتربع عـــلى المقعد ·· وتمثالها الذى ما لبث أن وضحت معالمه ·· وملامحها بدت رائعة كحقيقتها ·· وكما يراها بعينيه ·· أكثر روعة مما تشكله يداه ·· واختار لها نظـــرة ·· بث فيها كل أحزانه وأودعها فى مقلتيها ·

الصحف تعلن ·· مسابقة لصاحب لقب الفنان العظيم لأروع التماثيل ·· رنا اليها فى اعجاب ··

اتسعت ابتسامته :

ـ أيكون هناك من هو أكثر روعة منك ؟ !

تأمل أصابعه :

ـ أهذه الأصابع خالقة كل هذا الجمال ·· ؟!

تطلع الى المقعد حين غشيت الدموع عينيه :

ـ لولاك ما أبدعت يداى ·· من أجلك سيرون ما صنعت ·· فأنت خالقة مشاعرى ·· وحين يسألونى عن النموذج ·· سأبتسم فى دهاء ·· وأقول لهم ·· انه هنا فى مخيلتى ·· فى قلبى وكل جوارحى ·· أمام عينى ·· وعينى لا ترى سواه ·

جاء يوم المحفل للاختيار ·· التماثيل خلف الستائر بعيدة عن العيون ·· وفنانونا يذرع القاعة جيئة وذهابا ·· عيناه تخترقان الستائر باحثة عن تمثاله ·· عيون الجماهير عليه تحمل تعبير الاستغراب ·· تتفحص عينيه العميقتين وعظمت وجنتيه البارزتين وشعره المنفوش المتطاير ·· وهو لايدرى من أمره ولا من أمرهم شـــيئا ··

أزيحت الستائر .. كأنما أزيحت الأكفان .. بانت التماثيل في أشكال متباينة .. كلها تؤكد المعاناة وعن تمثاله أزيح الستار .. استطال عنقه واتسعت عيناه كأنما تضمها .. تدفقت الجماهير وتزاحمت .. برقت العدسات .. مرت ساعة وأخرى .. وأعلنت النتيجة .. وكان قد قرأها في عيون الجماهير والحكام .. وعرفها من خلال تعبيراتهم وصيحات اعجابهم .

رأى عينيها وقد زال عنها الحزن الى الفرحة .. انها تلوح له وتغبطه .. بل تتأبط ذراعه في زهو .. وأنفاسها تلفح وجهه .. يلمع في عينيها الدموع .. لا بد أنها دموع الفرحة من أجل نجاحه الكبير .. كل العيون على النحات .. عدسات المصورين تلتقط كل حركاته وسكناته .. والصحفيون يمطرونه بأسئلتهم .. وهو يقول ويقول .. لا يدري ماذا يقول .. فالقائل جوارحه وما يبعث النشوة في قلب حبيبته الراحلة ..

لم يستطع تيار الجماهير الجارف زحزحة الفنان بعيدا عن تمثاله .. فقد تسمر أمامه .. والناس من حوله يترنمون باعجابهم .. تتناقل أبصارهم في عجب بين التمثال ومبدعه :

ـ أهذا الواهن هو مبدع كل هذا الجمال .. أو تلك اليدان المعروقتان صانعة هذا التمثال العملاق ؟!

شق الجمع رجال أشداء .. قصدوا التمثال الرائع .. هموا بحمله .. قفز اليهم سائلا :

ـ الى أين ؟

ـ الى المتحف طبعا !

ـ الى المتحف ؟! .. أ .. أتقصدون صومعتي ؟ ؟

تبادل الحمالون نظرة تساؤل .. وعادوا ليتعاونوا فى حمل التمثال .. استحلفهم بالانتظار لم يأبهوا باستعطافه .. بل رفعوا التمثال .. فبان جميلا أخاذا .. وبدا الوجه قمرا منيرا ..

أمسك الفنان بأحدهم .. حين اعترضه مسئول المعرض .. ليقول له مداعبا :

ـ لقد أصبح التمثال من حـــق الدولة .. وسيوضع فى المتحف ليراه العالمين .

ـ بل .. بل انه تمثالى .. ألست صانعه ؟ !

ـ التمثال ملك للبشرية ...

ـ بل هى ملكى أنا .. لقد .. لقد عاهدتنى .

ـ من تقصد يا سيدى ؟ ! !

ـ أ.. أقصد تمثالى .. امنعهم ياسيدى .. مرهم أن يقصدوا منزلى ..

ـ بشرى لك يا سيدى فقد أخذت أعظم الألقاب .. وغدا ستتسلم مكافأة كبيرة .. و ..

ـ لا أريد .. بل .. بل أريدها هى ..

ابتعد الحمالون قليلا طفرت الدموع من عينى النحات المسكين .. التفت بجانبه ليجد الرجال قد نأى عنه .. نادى عليه وكرر النداء .. لم يلتفت اليه .. ولم يشك أنه قد أصيب بالجنون .. تلفت فى كل ناحية باحثا عمن ينقذه ويعيد اليه تمثاله .. وجدهم جميعا يضحكون منه .. ويعتبرونه مشهدا هزليا مثيرا ممتعا ... التمثال يبتعد .. الزحام من حوله كأنهم فى جنازة :

– سيدفنوها مرة أخرى ! .. أو يدفن الانسان مرتين؟ ! .. و .. وكيف يدفن الأحياء ؟ ! !

تقافز خلف الجموع .. والكلمات تتساقط من فمه تمزق نياط القلوب :

– دعوا روحي .. لا أريد ألقابكم ولا أموالكم .. دعوها .. دعوا روحي !

استطرد فى هذيانه بلا سميع .. حتى العيون ملت رؤياه .. وعبثا حاول أن يشق طريقا الى تمثاله .. انطلق يصرخ .. وأيضا ذابت صرخاته فى الزحام .. بل ان أحدهم أزاحه فانطرح على الأرض طعينا مكدودا محطما .. طرحوه فسحقوا آماله .. ولعلهم داســـوه بأقدامهم ولا ريب أن أخذيتهم وطأت الفنان العظيم .. وقبلا سلبوه روحه ودعوه لليأس والضياع ...

وعد السجين

وقف الزوجان يتبادلان نظرة تفيض لهفة ولوعة ·· بينهما حائل قاسى ·· والحائل قضبان السـجن ·· كان الزوج خلف القضبان يقف منذ وقت طويل ·· ينظر الى الخارج ·· كأنه على وعد بالقاء ·· وجهه قطعة من الدهشة والذهـول ·· بنظرته النفاذة ينظر فى عينى زوجته محاولا أن يسبر غورها ·· فالزيارة ليست فى موعدها ·· وقد قطعت الطريق جريا فأنفاسها لاهثة ·· لعلها فى موقف عسير ·· لا تقدر على مواجهته والوقوف له ·· طوال المدة كانت تخفى لواعجها ·· تغتصب ابتسامة تضعها على شفتيها لتبدو سعيدة ·· كلماتها تعبر عن التفاؤل واليسر لا تتواءم مع شـحوبها وهزالها ·· هذه المرة فشـلت أن تخفى حدة موقفها ·· ولا أن تكبح دموعها ·· لا بد فى الأمـر كارثة ·· والمصيبة فادحة ·

يضغط على القضبان فى عصبية ·· قلبه قطعة ثلج توزع البرودة فى أعضائه ·· وتتركز فى أطرافه التى ترتعش ·· ولسانه

قد شـل عن السؤال .. أخفى وجهه متحاشيا نظراتها .. أو أنه يرهب وقع الخبر .. كيف يهرب .. وما جاءت على عجل الا لتبثه نفس الخبر .. ولولا ثقله ما جاءت .. ولما تسمرت هكذا .. وسيقع عليه النبأ بقدر ثقله .. مهما قست ظروفه .. فهـو الرجل .. هو حامل المسئولية رغم وقفته خلف القضبان .. ويجب أن يتلقى الخبر على علته .. وأيا كان .. فالرجال لا يخفـون وجوههم من لسـع النيران .. بل عليهم أن ينفذوا منهـا .. وليحترقوا بلهيبها .

رفع السجين رأسه المتثاقل .. فى عينيها آثار السـهر والشجون .. كانتا ساحرتين فاتنتين .. لو فى مقدرتى لعانقتها .. ولأذيب كل آلامها .. ولأزيل من عينيها آثار الزمن .. أنفاسها ها هى تلهب وجهـه .. بين جسـديهما شـعر .. وليس ليهما الا التناجى رهبا وهمسا .. حرم عليهما العناق والالتحام .. وستظل أعضاؤهما فى شوق حتى يحين يوم الحـرية .. بعيدا عن هذه القضبان .

لم يمض العام على زواجهما .. فرقهما حكم القاضى بالسجن .. كم كانت سعادته حين أخبرته بحملها .. شعر بنشوة الرجولة .. غدا ستؤتى ثمارها وليدا يملأ البيت فرحا ومرحا .. ترددت السعادة فى قلبيهما .. وتألقت فى عينيهما .. ستكون أسرة .. الأسرة تعنى المسئولية .. الوليد يعنى عبء آخر .. لا يجب أن تختفى السعادة .. والصغير يجب أن يعيش فى رغد .. والمستقبل كبير .. شهور وسنين وسـنين .. والدخل بالكاد وشبح الدين بالمرصـاد .. الحاجة ساكنة معهم .. تعيش بينهم .. يجب أن ترحل الفاقة الى الأبد بأى وسيلة .. والغاية تبرر الوسيلة .. الغد أول الشهر موعد تسليم المرتبات .. الخزانة حاشدة برزم الأوراق .. المستقبل كبير .. شهور وسنين وسنين .. الموظفون

والعمال كثيرون .. سيعيشون شهرا من القلق .. شهرا واحدا لقاء عمر السعادة .. هو الآن وحده .. يستطيع أن يغلق الباب لينفرد برزم من الأوراق النقدية .. النفس قوية مسيطرة .. امارة .. امتدت يد الشيطان تجمع الرزم فى الحقيبة العتيقة .. فى الغد سيحمل حقيبة لا تقل عن حقيبة المدير العـام .. والوليد سيعيش فى بحبوحة .. وداعا للعوز والفقر والحاجة .. خرج من المكان .. الحقيبة ثقيلة .. والبسمة واسعة .. وبالجسد خدر لذيذ .. الا أن عينان ترقبانه .. لا يدرى بهما .. بدأت الرقابة بالريبة .. فالحركات قلقة والنظرات زائغة على غير العادة .. ومضت أيام قليلة ليساق الى هذا المكان .. وقد فرت الأحـلام بلا عودة .. مضى ثلاث سنوات .. بقى مثلها .. الأيام طويلة .. ثقيلة .. كئيبة .. لا مفر من قضاء المدة .. فى السجن ظلام نفس وذل وهوان .. الحرية بيضاء زاهية .. المستقبل غامض مجهول .. المهم الحصول على الحرية .. شوكة الضمير لها وخز مؤلم .. لا عودة الى هذه البقعة .. ما جدوى الندم .. مسكينة زوجته .. قبلته حرا .. وتتعذب من أجله سجينا .. وفية له فى أسره وحريته .. ولا جديد الا الحزن وصراع مرير مع الأيام .. كم اشـتاق لهما .. لعن الله الغاية والوسـيلة .. أيبادرها بالسؤال ؟ .. قطرات العرق تتصبب من جبينها .. فمها فاغر لا يقول شيئا .. لسان حالها يتكلم :

ـ ليتنى ما أتيت .. فماذا يصنع الليث السجين ؟ .. الا أن أزيد مرارته .. وأثقل على كاهله المتداعى .. ليتنى ما سعيت اليه .. لمحت احمرار عينيه ..

ـ انه المكتوب لابد أن يقرأه .. فلمن أسعى .. لمن .. لمن ؟ .. لا حيلة .. يجب أن أخبره .. هو الوحيد الذى يهمـه أن يعرف ...

ما زالت جامدة .. قرأت فى عينيه الشكوك .. الشكوك أدهى وأمر .. لينزل عليه الخبر نزول الصاعقة أرحم من نظراته .. كفانى عذاب القاء الخبر على أشل .. رأته كمن يعانى سكرات الموت انتزعت الكلام قائلة :

ابنتك تحتضر ..

انفغرت عيناه فزعا وجزعا .. على جبهته كثرت الخطوط وغارت .. غاص قلبه ووهنت دقاته .. ارتجفت أصابعه فدعت القضبان وارتخى جسده .. استند على القضبان .. نظر الى زوجته ثم عاد الى السور الحديدى .. عينا الحارس ترقبانهما .. آذناه مفتوحتان تلتقط كلمتى الزوجة .. لم تحتمل الزوجة الموقف .. تذكرت ابنتها فغادرت المكان منحنية الظهر .. تولول فى أعماقها .. شيعها الحارس بعينين مشفقتين .. دق قلب الحارس بعنف .. مشى بخطوات اجتهد أن تكون ثابتة .. أصبح فى محاذاة السجين .. مر بجانبه .. ابتعد قليلا .. جعل يسير على غير هدى وفكرة تتخبط فى عقله .. والسجين ما زال ينظر فى الطريق .. ينظر بعينيه الدمويتين الى الشمس الغاربة .. الفكرة تتربع فى رأس الحارس .. تذكر حاله .. أخال بأنها زوجته وأن الطفلة التى تموت طفلته .. أصيب بعزم فجائى .. أصبح فى محاذاته ثانية .. تلفت حوله .. ثم هتف هامسا :

ـ ألم تنجب غيرها ؟

لم ينتفض السجين هذه المرة .. بل أودع الحارس بنظرة عجب واشفاق .. ثم هز رأسه نافيا ..

عندئذ قال الحارس فى ثقة :

ـ لا تتزحزح من مكانك ..

الصـــور المقبضـــة تتراءى للحارس ·· غربت الشمس ونام المسجونين ·· وكانت احدى الزنزانات شاغرة ·· التقى الحارس والســجين لحظات ·· مشى الحارس وتبعه الســجين ·· فوجئ السجين بالباب الصغير مفتوحا ·· أشار له الحارس بالمضى ·· خرج ·· كاد أن يعـــود ·· كاد أن يبصق عليه الحارس ·· **جرى السجين كالفأر المذعور بعد أن همس الحارس فى رجولة نادرة :**

ـ موعدنا قبيل الفجر ··

انفلت السجين يعدو فى حرية ·· ليلحق بزوجته وابنته ·· طرق باب مسكنه ·· بغتت الزوجة المنكفئة على ابنتها التى تصارع الموت ·· لم تصدق سمعها ·· فمن سيطرق بابها ؟ ! ·· ومن ذا الذى يهمه أمرها ·· عاود طرقاته الخافتة ·· دق قلب الزوجة ·· من الزائر يا ترى ؟ ·· لعلها النجدة ! ·· فتحت الباب ·· شهقت حين رأته ·· كادت أن تسقط من المفاجأة ·· اجتذبها حيث فراش ابنته ·· انكفأ يقبلها ويتمسح بها ·· ويبكى ·· فتحت الطفلة عينيها ·· جعلت تتفرس فى ملامحه محاولة أن تتذكره ·· أنهك المرض ذاكرتها ·· لم تتذكر ·· ولكنها ارتاحت له ·· جرى الدم فى وجهها الشاحب ·· التقت عينا الأب والأم فى نظرة أمل ·· تناقل بصر الطفلة بين أمها وأبيها ·· نسيت الأم كل سنين الارهاق ·· نسى الأب سنين السجن والعذاب ·· حامت السعادة دقائق وكانت قد هجرتهم ·· تفوهت الطفلة لأول مرة منـذ أن هاجمها المرض :

ـ أريد عروسة ·· كل الأولاد معهم عرائسهم الا أنا ··

رفرف قلب الأب سعادة بهذا الطلب ·· ولكن يديه خاويتان ·· لا يملك حتى حريته مثل الكلب العقور الحبيس ·· طـأطـأ

رأسه فى لوعة .. لم تطق الزوجة .. خلعت قرطها كل ما لها .. هزته وقدمته له .. أخذه فى صمت .. والصمت خير معبر .. غادر المكان بينما عينيه على ابنته التى ابتسمت له .

غاب الزوج .. اشتدت لهفة الزوجة عليه .. أصابها الجزع .. بكت .. تأثرت الصغيرة فبكت معها .. بهت وجه الصغيرة فاكتأبت الأم .. عاودها المرض .. كأنما يرقد تحت وسادتها .. أو أنه انتظر خروج الأب رحمة به ..

ابتاع الأب عروسة ابنته .. وكانت حيرته .. هل يسعى لاستدعاء طبيب ؟ .. وما ذنب الحارس اذا افتضح أمره .. نزع من نفسه هذه الفكرة .. عدا الى مسكنه .. اقتربت يده لتطرق البـاب .. جـاء الى سمعه أنين مكتوم .. دق قلبه مسرعا .. طرق الباب .. دخل مهرولا .. تسمر أمام فراش ابنته .. نظر الى صدرها الساكن .. ثم الى زوجته .. سألها بعينيه .. هزت الزوجة رأسها بالايجاب .. تنقل بصره بين وجه ابنته .. ووجه زوجته .. ووجه العروسة الذى كان يحمل ابتسامة .. زالت ابتسامتها .. غشى الحنان قلب الجماد .. ان كان للجماد قلب .. جمدت عيناه على ابنته المسجية ..

– لولا سجنى .. لما ماتت ابنتى .. ما ذنبها ليفتك بها المرض .. ماذا جنت ليرتسم الموت على محياها الطاهر .. وتموت الابتسامة من شفتى الدمية .. لمعت عيناه لمعانا غريبا .

– ما أحلى الحرية .. وماأعذبها ! .. ليتنى ما تنسمت هواءها .. ليتنى ما أطعت الحارس فلا أرى جثمان ابنتى .. ليتنى ما جئت .. لو أفر من السجن .. ومن نفسى .. ومن الحياة .. الموت أرحم .. بلى سـيريحنى ويهدىء من روعى .. لكنه سيعذب غيرى .. فما ذنب زوجتى التى تعيش على أمل حريتى ..

وبعد أن أفجعها الموت فى أعز ما لديها ·· فهى الابنة ·· وهى السلوى ·· وهى الوصال بيننا ·· وذكراهـــا فى ســجنى ·· وما ذنب الحارس الذى يعيش الآن على أمل عودتى ··

فى السجن كل العيون حارسة ·· فقط عينان يفعمهما القلق ·· كل الآذان مرهفة الى حـــركات المسجونين ·· فقط أذنان تتلمسان صوت أقدام السجين ·· تتمنى أن يعود ··

انساب الشعاع الأول من النهار ·· وفى هذه اللحظة كان آدمى يدخل من الباب الصغير ·· عندما نطق الحارس بالشهادتين ·· والتقت عيناهما ·· فهم الحارس ما وراء دموع السجين ·· ومع ذلك فقد تبادلا نظرة امتنان ·

لقـاء

في ليل الشتاء القار يحلو الدفء والنوم .. وفي تلك الحارة الضيقة تشتد حلكة الليل .. وقد تلاشت أصوات الأحياء .. حتى الكلاب أغراها السكون فعفت نفسها من الحراسة .. واستسلمت لسبات عميق .

الناس يغطون في النعاس .. الا هو ! .. الشرفات والنوافذ جميعها مغلقة .. الا نافذة حجرته .. فقد وقف يطل منها الى صفحة السماء الصافية .. ينصت الى أنفاسه التي تتردد في بطء .. بين سبابته ووسطاه سيجارة تروح وتغدو بين الظلام في حركة سريعة متتالية .. تحرق نفسها ! .. وما تلبث أن تهوى في الفضاء .. والحجرة تفعمها رائحة دخان خانقة .. ثقيلة لا تربحها نسمات الهواء .. فقد تشبعت بها قطع الأثاث فغدت تنبعث منها ..

استمر يحملق في النجوم .. كأنما يبثها لواعجه .. فاغر الفم .. والأفكار تتلاحق في ذهنه .. وتبدو لمخيلته عقيمة متخبطة

.. ودع النافذة .. فتح المصباح فبدا الضوء شاحبا .. تهالك على فراشه .. من خلال سحب الدخان جعل يتأمل بقايا سجائره وقد تكدست فى المطفأة .. ضغط رأسه بكلتا يديه بينما تأوه .. .. وقف .. خطا بضع خطوات .. جعـــل يتأمل الحجرة .. الحيطان صماء جامدة .. هائلة كالمردة .. الســـقف يموج يكاد **أن ينطبق فوق رأسه .. :**

ـ كيف أحطم الزنزانة ؟ .. كيف أبرح الســـجن الذى اخترته ونصبت قضبانه .. كيف ؟

نبش السكون صياح طفلته .. وصوت زوجته تهدهدها .. وسرعان ما عاد السكون .. خطا فى تثاقل .. لمح وجهه فى المرآة .. دنا منه .. تأمله مستغربا : ـ أهذا وجهى ؟ !

اســتطرد يتــأمل ملامحــه .. حفرتى عينيه الغائرتين .. تحوطهما هالتان سمراوتان .. تنيات وخطوط تشابكت وانتشرت فى وجهه .. **كتم صرخة فخرجت أنينا :**

ـ كيف أحتمل ؟ ! .. كيف أواصل ؟

عيناه تتسعان وتبرقان .. رقبته تتشنج .. كتفاه يرتعشان .. حدقتاه تتراقصان .. صوت فى أعماقه يزعق .. أنصت .. نفسه تتشدق وتصرخ .. كله آذان صاغية .. أصابه الذهول .. بهتت كل الأفكار الا هذه الفكرة .. وضح الشىء جليا .. لمع فى مقلتيه .. سيطر واستبد .. زال الذهول لتنفرج شـــفتاه عن ابتسامة بلهاء .. اتسعت فملأت وجهه .. هبت ريح نفشت شعره فبدا كسكير .. أو مخبول .. حدق فى الأشياء من حوله .. كلها تتلون باللون الأحمر .. السماء تبدو داكنة الاحمرار .. النجوم عيون تجمدت نظراتها من شدة الهول .. السماء تقطر دما يفرش

الدنيـا .. تقلصت عضـلاته .. زم شـفتيه .. **خـرج صـوته محشرجا :** سأقتلها ..

جعل يردد هذا القرار .. وكأنما استساغ طعمه اللاذع .. اللاسع ..

أيام ثلاثة قضاها بين الصمت والوجوم .. فى الليل يجتهد فى لم شتات فكره بلا جدوى يدور رأسه ويدور .. وتنكمش الأفكار بتسلل خيوط النهار .. تطارده نظرات زوجته النفاذة .. تزلزله ابتساماتها الباردة .. يفقد اتزانه وتوازنه .. وطفلته بوحدانها تحس بما يدور .. عقلها الصغير يجتهد أن يدرك .. يصطدم بعملاق أسود تختبئ خلفه الأسرار .. عندئذ تشـعر برغبتها فى البكاء .. وكلما غرق فى بياض النهار يشـعر بيد تضغط عنقه .. النهار يفضحه ويميط اللثام عن وجهه .. ويلحق بعقله الخمول .. فلا يقدر الا ليهرب الى حجرته .. ويغلق بابها .. وكم يتعذب حين يشعر بالعيون تطارده ..

فلا يقدر الا أن يواجهها بنظرة .. أيضا بلهاء :

ـ ما زال فى الليل شوط كبير .. لن يأتى النهار الموحش حتى أنفذ فكرتى .. سأقتلها .. وأعيش لنفسى التى أضنيتها .. كم طالت ساعات السجن المروعة .. لأحطم السجن وأفر .. ولن أعود ..

أنى الى سمعه أزيز فراش زوجته .. أصاخ السمع وقلبه يتقافز .. لم تبك الصغيرة هذه المرة .. الدقائق تمر سريعة .. لم يبق من الليل الا هزيعه الأخير .. سكتت الأصوات ولم يسمع الا دقات قلبه .. الشيطان يناديه .. ونفسه تدفعه .. وها هى معشوقته يخاليا تبتسم مشجعة .. وها هى يداها تجذبه الى خارج

الحجرة .. مشى كالمسحور .. الشيطان يحذره أن يتلمس الأرض بأطراف أصابعه .. خطوة بعد أخرى .. خطوات كثيرة كأنها أميال .. وما زال بعيدا عن مأربه .. تطلع الى حجرة زوجته مسرح جريمته .. نظرات زوجته الباردة تخترق الباب .. صرت أنيابه .. التفت الى المطبخ .. عرج اليه .. لم يبحث عن السكين التى تلمع أمام بصره .. أمسك بمقبضها .. لوحها .. قربها لأنفه .. اشتم رائحة البصل .. واشتم رائحة أخرى أثارته .. حدج السكين باعجاب .. دسها فى صدره .. مرق من الصالة وقلبه يرتج .. الدماء تتدفق الى رأسه .. وقف أمام باب المسرح .. فتحه بخفة الشيطان .. خطا بيسراه الى الداخل .. نظر خلفه .. الشيطان مازال يحثه .. يدا عشيقته تدفعانه لأن يقدم .. وقف أمام الفراش .. حاول أن يبتلع لعابه فلم يستطع .. فقد جف حلقه .. على الضوء الخافت رأى وجهيهما متلاصقين .. أخال بأنهما يغيظان له .. غلى الدم فى عروقه واندفع فى يديه فارتفعت يمناه .. كاد أن يستل السكين .. فكر برهة .. عدل حرفا فى خطته .. فليكن المسرح حجرته .. زحفت يداه نحو صغيرته بينما عيناه على زوجته .. ثلجت أطرافه وقلبه .. أمسك بكتفى وحيدته .. اجتذبها من تحت ذراع أمها .. خلص يدها العالقة بكتفها .. أصبحت بين يديه .. نظر تجاه الباب المفتوح .. الشيطان وعشيقته يبتسمان له .. ألقى نظرة الى زوجته .. انها غارقة فى الأحلام .. قفز الى الباب .. خرج .. هرول كالثعلب الى المسرح الجديد .. **ألقى ابنته على فراشه .. رنا اليها فى حنق وتمتم :**

ـ هذه هى الحائل .. لقد رفضتنى فى اصرار .. وعيناها تفيض بالحب .. نعم انها تحبنى ..

أذن ديك وأجابه آخرون .. استمرت كأنها لم تنته ..

اشتد غيظه ·· تحركت الطفلة ·· اشتد صياح الديكة فصمت ·· **اهتاجت كوامنه وشبت فى جسده النيران :**

ـ كنت أريدها نائمة ··

نظرت الصغيرة من حولها ·· أوشكت على البكاء ربت على صـــدرها بيـده المرتعشـة ·· الديكة تملأ الدنيـــا زعيقا ·· **قام ليغلق النافذة فاصطكت فأودعت الرعب فى قلبه :**

ـ كان عمر الحب قصيرا ·· ومع ذلك قد بلغ ذروته ·· حكينا وحكينا ·· وقبلتى لها ·· يا لها من قبلة ·· كانت ساحرة المذاق ·· كم تعبث فى نيلها ····· الصغيرة تفرك عينيها وتسأل عن أمهـا :

ـ لكنها ·· لكنها أبعدتنى ·· وأشاحت بوجهها عنى ·· **وبكت فى لوعة ·**

الطفلة تردد فى رهبة :

ـ أين ماما ·· أين ماما يا بابا ؟!

ـ طلبت أخرى واشتد الحاحى ·· رفضت بشدة ·· لامتنى ·· وكادت أن تقرعنى ·

أضافت الصغيرة ورنتى الخوف والدهشة فى صـــوتها :

ـ أين ماما يا بابا ؟!

نظر اليها بينما استطرد :

ـ لا أستطيع العيش بدونها ·· وهى كذلك ·· هى على حق حين رفضتنى ·· سأمحو السبب ·· سأعيش من أجل سعادتى ··ولتنزوى حياة الآخرين ·

هتفت الصغيرة بصوت غريب :

ـ ماذا تقول يا بابا ؟!!

دس يده فى صدره ·· أمسكت يده مقبض السكين :

ـ طعنة واحدة ·· طعنة خفيفة تكفى ·· انها ·· انها طفلة ·

ـ أنا لا أسمع شيئا ·· لا أفهم ما تقول ! ·· أين ماما ؟ ·· وضع اصبعه على حافة السكين قائلا :

ـ سأريها لك ·· ولا تخافى منها ··

ـ أنا لا أخاف من ماما ·· انها تحبنى ·· ماما لطيفة ··

ـ كيف أريها السكين ·· أو أرفعها أمام عينيها ·· ستخاف منى ·· لا ·· لا أريد أن أخيفها ·· بل أود قتلها ·· أتخلص من وجودها ·· أو ·· أو أطعنها من الخلف ·· لكن ··

صاحت الطفلة : ـ لم ترتعش يا بابا ؟ ·· ماذا تقول ؟! ·· اننى لا أفهم كلمة واحدة !!

ـ لا ·· بل سأخنقها ·· هذا أفضل ·· انها لفكرة صائبة ·· ولن ·· لن تخاف يداى ··

ـ أتريد حلوى يا بابا ؟ ·· هـ ·· هل أنت جائع فأعد لك الطعام ·· ماذا تريد ·· لم ·· لم لا تجيب ؟ !

صاحت الطفلة وقد أوشكت على البكاء :

ـ سأذهب الى مـامـا ·· اننى أخاف منك ·· أنت شكل « البعبع » ·· لم أنت غاضب ·· اضحك يا بابا ! !

دنت الصغيرة منه وجعلت تداعبه .. أحاط عنقها الصغير بيديه الكبيرتين .. لهثت أنفاسه .. ظنت أنه سيقبلها فسلمته خدها .. تأمل عينيها البريئتين الصافيتين .. الدموع تتلألأ فيها .. ابتسامة تضيء وجهها .. شعر بخدر يصيب يديه .. ووهن فى كل أعضائه .. حاول أن يضغط على عنقها .. لم يقو .. علته الدهشة .. تبدلت أساريره رويدا .. غشيت عينيه عبرتان .. ولم يسعه الا أن يجتذبها نحوه ويضمها الى صدره .. تطايرت الدموع على خد الطفلة .. علا بكاءه .. سألته الصغيرة فى تأثر بالغ : ــ لم تبكى يا بابا ؟ !

فى هذه اللحظة دخلت الأم وابتسامة تتراقص فى عينيها .. نفس الابتسامة .. ولكن هذه المرة لم يشعر ببرودتها .. اندفعت اليهما تبكى وكذا بكت الصغيرة تأثرا .. رفع الزوج وجه زوجته .. والتقت نظراتهم بعد غياب طويل .. وبمعنى جديد ..

كانت خيوط الصباح قد تسللت الى الحجرة .. فى خفة ودلال قامت الزوجة .. فتحت النافذة لتمتلىء الحجرة بالضياء .. تصاعدت رائحة الدخان الثقيلة الخانقة .. هبت نسمة رقيقة لتنشر رائحة جميلة .. وجاء الى سمعهم غناء الأطيار .. وارتسمت أروع ابتسامة على محيا الصغيرة .

العصـا

الأسرة تسكن حجرة بالدور الأرضى ·· الأسرة كبيرة العدد ·· والحجرة رطبة ·· داكنة بالليل والنهار ! جلس العائل بالقرب من المدخل على حشية قطنية مهلهلة ·· لعله أراد أن يرى بياض النهار ·· لم يقصد الترويح ·· بل لأنه قعيد يعتمد على غيره ·· زوجته أو أحد أبنائه ·· أيهما أقرب منه ··

العائل الكسيح دائما مشغول مع ذكرياته ·· ماضيه الذى كان ·· وجهه قطعة من الحسرة ·· يتأمل قطع الأثاث القليلة ·· كانت عديدة يزدحم بها مسكنه الكبير الذى كان ·· باعتها الزوجة قطعة قطعة ·· كما باعت نحاسها وحليها ·· حدث كل هذا بعد زيارة ذلك الرجل ·· الذى يذكر ملامحه « البوسطجى » ··

ويذكر اللحظة التى أعطاه فيها الخطاب الحكومى المسجل ·· تناوله بيد مرتعشة ·· وقلب نابض ·· وبصيص من الأمل ·· فتح الخطاب فى وجل ·· لم يكمل قراءة السطر الأول ·· حتى

زاغ بصره ·· وبلغت روحه حنقومه ·· لو يقدر ساعتها لهرول خلف البوسطجى ·· وتدفقت دموع حبسها انتظار الأمل ·· لقد وقع على فصله من العمل لعجزه ·· مقابل جنيهات قليلة ·· تكفى بضعة أيام من الشهر ·· تسمى معاش وكأن على هؤلاء أن يعيشوا لبضعة أيام هذه ويموتوا باقى الشهر ·

صكت الزوجة صدرها حين أبلغها الخبر ·· تداعت باكية حظها والأبناء من حولها يبكون بعضهم تأثرا بالخبر ·· والآخرون تأثرا بالموقف ··

انكمشت أساريره ·· انفرجت ·· ضحك ســـاخرا حينما وقعت عيناه على عصـــا فى ركن الحجرة ·· والتى أســمتها ابنته الكبرى بالعصا الأثرية ·· بلى فقد كانت لجده ·· ولقد رآه فى أواخر أيامه يتوكأ عليها ·· كم كان يحب جده ويعشق ابتسامته الودودة ·· وكانت لأبيه بعد جده ·· وما زالت تعاشرهم ·· كم هى كالحة ·· لكنها وفية عشرية ·· كتم أنينه ·· لقد مرت عليهم أياما ضنكا ·· سدت أمامهم كل سبل العيش ·· لم تتوان الزوجة أن تبيع أسورتيا ·· هديته الوحيدة لها ·· بكى لحظتها بكل جوارحه بكاءا مرا ·· على الرف الوحيد صندوق خشبى عتيق ·· تغير لونه ·· بالأمس كان يحوى مالا لا بأس به ·· غدا اليـــوم فارغا خاويا ·· وها هو الابن الصـــغير ·· آخـــر العنقود ·· يدفع بالكرسى الوحيد أمامه ·· فلت هذا الكرسى من البيع لافتقاده الرجل الرابعة ·· ينقلب الكرسى الأعرج ·· وينكفىء الصغير ·· يفلح فى الوقوف ·· ويفشل فى ايقاف الكرسى ·· يقطب ·· نسى ماضيه وذكرياته ·· زحف بمقعدته ·· أوقف الكرسى ·· لكن الصغير سئم اللعبة ·· وانصرف الى أخرى ·· وما اللعبة الا قطعة من الأثاث ·· أو الأدوات ·· يحولها الى لعبة ··

ويعاود الذكريات ·· ان لهذا الكرسى أهمية قصوى ·· ففى الليل يستخدم شماعة ملابس ·· كما تجلس عليه ابنته الكبرى لتستذكر دروسها ·· وفى النهار لعبة الصغير ·

الأم تعود عنـد تسلل الليل ·· على وجهها شـحوب يزداد بمضى الأيام ·· عودها يذبل ·· الحسرة تنهش قلبه ·· كانت وردة يفوح أريجهـا ·· وها هى آيبـة ·· الحسرة تعض قلبه وتعتصره ·· أن من أعماقه ·· لم تلتفت نحوه ·· فقد تعودت أذناها تلك النغمة ·

فى هذا الوقت تعود الزوجة ·· وكانت قد خرجت فى الفجر ·· لم تتأخر يوما منذ زيارة البوسطجى المشئومة ·· وما العمل سوى غسل ملابس الناس لقاء أجر زهيد ·· ترد به وحش الجوع عن زوجها وأبنائها ·· بجانب جنيهات المعاش القليلة ·· ومنذ رجـوع الزوجة ·· يطأطىء الزوج رأسـه خجلا ·· وكيف يرفع رأسه وهو العائل ·· والكسيح الذى لا حول له ولا طول ··

فى هدوء تجلس الزوجة ·· تستشعر الألم ·· فالأولاد يكبرون ·· وتكبر معهم احتياجاتهم ·· ترقبها ابنتها الكبرى ·· رفعت الأم وجهها ·· التقت عيناهما ·· طالت النظرة بينهما ·· لعلهما يبثان حديثا بالغ الأهمية ·· دخل الابن الصغير ·· وقف أمام أبيه ·· هـم بأن يتفوه ·· لكنه لمح أمـه فسعى نحوها قائلا :

ـ أمى ·· أريد حلوى حمراء ·· مثل عزيزة ··

وعزيزة هذه ابنة الجيران ·· بالطبع كانت بيدها حلوى ·· تأكلها فى نشوة ·· بينما الصـغير يزدرد لعابه فى لوعـة ·· احتوت الأم فلذة كبدها بعينيها ·· **وكأنما تقول له :**

– لو لم تخرج من الحجرة .. ما رأيت عزيزة .. وما رأيت الحلوى بيدها .. و .. وما طلبتها ..

قرأت الأم التأثر الذى لاح فى أسـارير الزوج العاجز .. وما زال الطفل يلح .. الزوج يبتعد بعينيه ليخفى دموعه .. على الفور أخرجت الأم منديلا من صدرها .. حلت رباطه .. انتقت قطعة صغيرة **وأعطتها لولدها .. ولسان حالها يقول :**

– خذ يا بنى .. ثمن طعام يكفى لملء معدتك .

انصرف الابن غير عابىء بحديث أمه النفسى .. ولا بنظرة والده الممتنة لها .. وعاد الصمت يجول فى الحجرة .. وأضاف الوجوم كثيرا من الشـجون .. والأولاد يتطلعون الى الأم أملهم المرتقب .. وجهها قطعة من العذاب .. ذبالة المصباح تتراقص فى كسل .. الابنة الكبرى ما زالت واقفة .. ساهمة .. حانت من الأم نظرة اليها .. رأت يديها البضتين وعودها الريان .. انها تمثل شبابها .. تتفجر بالأنوثة مثلها .. عينا الزوج عليهما .. ورأسه تدور .. الزوجة تخفى رأسها بين يديها .. تفكر لاريب .. الزوج يقـرأ ما يدور فى فكرها .. ويعلم أنهـا تبكى .. وهذا يزيده لوعة واحتراقا .. والابنة أيضا تعرف كل ما يجـرى .. وكل ما تخفيه الصدور .. يعصف برأس الأم خاطر غريب ..

– لو أفر من هذا الجحيم .. ومنهم أجمعين !

وسرعان ما تطرد هذا الخاطر .. وتتمتم بالاستغفار .. وبعين المستقبل ترى ابنتها جالسة أمامها بينهما طست به ملابس الغير .. فى ذلك البيت وذاك .. تقاسى ما تقاسيه آلام جسمية ونفسية مبرحة ..

يشتد فزعها :

ـ لو أعمل ليل نهار ·· ولا أدعها تخـــرج الى العمل ·· فأولاد الحرام يعجون فى كل شبر من الأرض ·· وفى كل حين ·· كأنهم الشياطين ··

يدخل الصغير ·· الفرحة تضيء وجهه ·· تؤكدها قفزاته السعيدة ··

بيده قطعة الحلوى الحمراء ·· فى هذه المرة يجنح الى والده ويقول له :

ـ خذ هذه القطعة الصغيرة ··

يهز الأب رأسه وقد ارتعشت شفته السفلى ·· وألهبت عينيه دمعة حارة ·· وتوهجت أحزانه حين رأى ابنه يلف على اخوته ويعطى كلا نصيبه من حلواه بين صياحه وتهليله ·· ثم حبا ناحية **الأم وقدم اليها باقى الحلوى قائلا :**

ـ وكل هذا نصيبك يا أمى ··

ثم يتساءل مباغتا :

ـ أين تذهبين يا أمى كل يوم ؟

ولا تملك الأم الا أن تنظر الى زوجها ·· كأنها تسأله الاجابة ·· ولم يكن فى وسعها الا أن تجذبه الى أحضانها ·· تمسح دموعها فى صدره ··

حينئذ يقول الطفل :

ـ حين أكبر سأعطيك حلوى كثيرة ··

··· ثم يقول فجأة :

ـ أمى ·· هل اقترب العيد ؟

ـ العيـــد ؟ !

ماذا تعنى هذه الكلمة ·· كأنها لم تسمع عنها ·· أو نسيت مدلولها ·· وأجابت دون وعى :

ـ بـلى ··

ضحك الطفل وصفق طربا ثم استطرد :

وأين ملابسى الجديدة ·· وملابس اخوتى ؟

ـ ملابس ·· جديدة !

جعلت الأم تكرر هاتين الكلمتين ·· بينما جاس طرفها فى الخرق التى تستر أجسامهم ·· ثم نقلت بصرها الى زوجها فوجدته بعيدا ·· وقد تشنجت كل عضلاته ·· لعب لسانها فى فمها ولم تتبس ·· ودعت الصغير يحلم بما سيصنعه يوم العيد ·· ماذا تقول له ·· والحقيقة ماثلة تتحدث عن نفسـها ·· كل يعلمهـا الا الصغير ··

ولم يدعها الصغير فبادر بسؤاله :

ـ أقول لك أين ملابسنا الجديدة ؟ !

عندئذ اندفعت الابنة الكبرى بعد عذاب وتردد ·· قائلة :

ـ أنا التى سأحضرها لك ··

ترددت أنفاسها سريعة ·· اتجهت اليها أنظار الاخوة فى دهشة ·· وكذا الأب العاجز ·· والأم حائرة ·· وكانت تعلم أن أذنيها ستصطك بهذه الكلمات القاسية ·· وجعلت الكبرى تنقل بصرها بين أمها وأبيها لتستشف وقع كلماتها وصداها ·· وهنا تبرق عينا الأب ببريق خاطف ·· مخيف ·· وقال بصـــوت مخنوق :

ـ مستحيل ....

ثم ركز بكلتا يديه على الأرض .. وجعل يزحف على عجيزته بين نظرات العجب من الأم والأبناء .. وتصفيق الصغير وصياحه .. استطاع أن يصل الى ركن الحجرة نظر الى العصا الأثرية فى أمل .. اجتذبها .. استطاع أن يضع راحته على طرفها العلوى .. واعتمد بيسراه على الحائط المجاور .. استطاع أن يقف منتصبا .. ازدادت الدهشـــة وعلا تصفيق الصغير .. خطا الكسيح .. جعـــل يدب بعصاه على أرضية الحجرة حتى وصل الى بابها ثم وقف واتجه بنظراته النارية الى زوجته قائلا فى عزة وبصوت جهورى عميق :

ـ لا تبرحى الحجرة ...

خرج العـــائل .. وقفت الأم ومن حولها الأبنـــاء على باب الحجرة .. الابتسامة تتعلق على كل الأفواه .. وعلى وجه الأم فرحة وفى عينيها دموع .. مشى الأب والأمل يدب فى قلبه مع دبيب عصاه .. وسرعان ما اختفى بين الزحام .

عم عدوى

اتفق معى صديقى الملحن أن أزوره فى مكان فرقته لأسمع لحنه الجديد .. وفى الموعد المضروب .. اصطحبت معى أحد أصدقائى من عشاق هذا الفن .. دخلنا مبنى شاهقا .. واجتزنا الممر المؤدى الى الدرج .. أتى الى سمعينا نغمات متباينة .. لعل أعضاء الفرقة الموسيقية يستعدون للعزف .. فيدربون أصابعهم مع الأوتار لتلين مع رقتها .. مشينا بالممر العلوى والأنغام قد انتشرت فى جو المكان .. شعرت بالشوق .. وكلما اقتربنا .. كلما زادت ليفتى .. رآنا صديقى فهرول الينا مرحبا .. وكان قد مر أمام ضابط الايقاع .. كان يجلس ملاصقا لباب قاعة العزف .. فهب واقفا فى انكسار .. أجلسنا صديقى .. وكانت جلستنا بالقرب من ضابط الايقاع .. ورأيناه يقصد رجلا تطايرت خصلات شعره يجلس فى كبرياء أمام قانون .. يلوح بيده فى الفضاء .. وصوته يرتفع بين آن وآخر .. عرفت على الفور أنه « المايسترو » رئيس الفرقة .. جعلت أنقل بصرى بين الآلات الموسيقية بأشكالها

وأنواعها ·· والعازفون جالسون فى تأهب ·· وصديقنا يمشى هنا وهناك كالنحلة ·· يهمس فى أذن هذا ·· وينصت الى ذاك ·· وأخيرا وقف بالقـــرب من القائد الذى بان فى وجهه الجد ·· وباشارة من يده عم السكون ·· وما لبث أن أعلن بدء العزف ·· ثم التفت الى ضابط الايقاع قائلا :

ـ جاهز يا عدوى ··

أجاب عم عدوى بصوت خفيض واهتمام :

ـ جاهز يا فندم ·

ـ طبلة بدوية ·· ابتدى ·· واحد ·· اتنين ·

وانطلقت أصابع عم عدوى تدق الدف فى اتقان ·· انحنيت بقدى ومشاعرى أرقب أصابعه التى تتقافز على الدف ·· تطلعت الى وجهه ·· وكانت دهشتى حين رأيته بعيدا عن المكان ·· وانبرت الآلات الأخرى تعلن عن وجودها وترسل نغمات متسقة ·· واستمر العزف فترة بين اشـــارات القائد ·· بيده ·· ورأسه ·· وكل أعضائه ·· وانتهت « البروفة » الأولى لتبدأ فترة الراحة ·

قام أعضاء الفرقة يتجولون داخل الحجرة وخارجها ·· كما قام عم عدوى متكاسلا ·· سار فى تخاذل خطوات قليلة ·· ثم جلس على مقعد فى مواجهتى ·· تفرست فى وجهه ·· رأيت الزمن وقد خط خطوطه القاسية ·· وحفر حفرا غائرة على صفحتى وجهه ·· وتشابكت ثنايا كثيرة على جبهته وحول عينيه الشاردتين ·· وأسفل ذقنه ارتخت العضلات فبانت أوردته الملتوية المنتفخة ·· وبرز أنفه كبيرا ·· وكل هذا البؤس محمولا على عنق واهن وجسد هزيل ·· كما برزت ضلوعه من فتحة قميصه المرقعة ·· ويرتدى « بنطلونا » امتد قليـــلا تحت ركبتيه فأظهر فردتى جوربه التى

اختلفت كل واحدة عن قرينتها لونا وحجما ·· وقد ارتخت احداهما عن ساق نحيل ·· عليه شعيرات ابيض معظمها ·· ويلف قدميه حذاء ضخم تراكمت عليه الأتربة بحيث يتعذر التعرف على لونه الحقيقى ! ·

صفق « المايسترو » ايذانا ببدء « البروفة » الثانية ·· أخذ كل مكانه ·· تناقلت نظرات « المايسترو » بين العازفين واستقرت على مقعد عم عدوى الذى وجده شاغرا ·· فصاح مناديا اياه ·· لم ينتبه عم عدوى للنداء الذى تكرر ·· فقد كان شارد الذهن ·· اختلط صياح الرئيس بسبابه ·· والرجل لا يدرى من أمره شيئا ·· قمت من فورى انقـــاذا للموقف ·· ربت على كتفه فانتفض مذعورا ·· وانتصب واقفا ·· يتلفت فى كل ناحية ·· أشرت الى مكانه ·· فأسرع اليه ·· ولم يدعه الرئيس الذى سأله مزمجرا :

ـ أين كنت يا سكران ؟

أجاب عم عدوى فى فزع :

ـ أبدا يا سعادة البك ·· كنت ·· كنت ··

ـ اسمع يا رجل ·· هذه المرة الأخيرة ·· وهذا انذار أخير ·· فاهم ·· ؟

هـز عم عـدوى رأسه فى اذعان ·· وقبل أن يشرد ارتفع الصوت الذى يزلزل كيانه ·· السوط الذى يلهب أذنيه ويلسـع كرامتـه ·· وطفق يدق على دفه ·· الدقات عميقـة رهيبة ·· كالشـــعاع الذى ترســـله عيناه ·· وانتهت البروفة الثانية بسلام ··

لم يدع عم عدوى مكانه تحاشيا لاهانة أخرى ·· وجعل يتأمل زملاءه بوجوههم التى تشع منها الراحة والسعادة ·· يتألقون

فى ملابسهم الفاخرة ·· تبرق فى العيـون خواتمهم وسـاعاتهم الذهبية ·· تفوح منهم رائحة عطرية ·· وتأمل عم عدوى نفسه باحساسه ·· مقارنا بوجهه المغضن البائس وأسماله البالية التى تستر جسـده فى خجل ·· تفوح منه رائحـه العرق ·· كريهـه نفاذة ·· يديه الخاويتين النحيلتين ·· وهيكله الضـامر ·· كم تأثرت حين رأيته يدمع ·· واشتد تأثرى حين رأيته يخفى وجهه تفاديا لنظراتى ··

جاء الى سمعى هرج وجلبة صادرين من الردهة الخارجية·· قمت لاستطلع الخبر ·· شاهدت بين العازفين رجلا طويل القامة نحيفها ·· له شعر طويل فضى نمقته يداه الرقيقتان ووجه أحمر دقيق الملامح ·· خاليا من التجاعيد ·· تزينه ابتسامة واثقة ·· ·· وفى يده حقيبة فاخرة ·· وبصحبته فتاة رقيقة ·· أنيقة ·· ترتدى رداء براقا ·· ويلمع فى صدرها عقد كبير ·· تتضافر فى رشاقة مزهوة بنفسها وبمن فى رفقته ·· البشر واضح فى سماتها ·· حانت منى التفاتة الى عم عدوى فرأيته وقد علته صفرة الموت ·· ينظر فى جزع الى لا شىء كغريب ضل الطريق ·· أو كجرذ صغير يفتش عن شق ينزوى بداخله حتى لا تسحقه الأقدام ·· وعدت أسترق النظر الى الفتـاة الرشيقة ·· شتان بينهما ·· كالسماء والأرض ··

جرى الجميع ناحية الضيفين ·· وقفت بينهم وبين عم عدوى الذى أفاق أخيرا من سكرته ·· فوقف مطأطئا منكمشا على نفسه ·· لا يتقدم خطوة واحدة حتى لا تشتم رائحته ·· يختلس نظرات خاطفة ·· خائفة ·· اقترب الجمع منه فامتقع لونه ·· وأصيبت أطرافه وجسده بالرعشة ·· سألت صديقنا عن الرجل والفتاة ·· **فقال فى تفاخر :**

ـ انه المخـرج ·· وانهـا المطربة التى ستؤدى لحنه ··

وسار الجمع الى قاعة العزف ·· واتخذ العازفون أماكنهم ·· وانسل عـم عدوى وجلس على مقعده العتيق ·· وأمسـك بدفه استعدادا ·· وجسـده ما زال ينتفض ·· وصدره يعلو ويهبط ونظراته قلقة ·· غير مستقرة ··

تبادل صديقنا و « المايسترو » نظرة ·· بعدها ثبت الأخير نفسـه فى مقعـده ·· ثم نظـر ناحية عـم عـدوى ·· **وتلاحقت الأنظار تباعا ·· ورفع عقيرته :**

ـ هيا يا عدوى ·· واحذر القفلة الأخيرة ·· واحد ·· اثنين ··

التفت المخرج الى ضابط الايقاع الذى أسرع نبضه ·· ولكن الحمد لله نظر الى ناحية أخرى ·· وعاد ينصت اليه حين سمع الدف يملأ المكان رهبة ·· كان ضابط الايقاع يعبر عن نفسه ·· فالدف متنفسه الوحيد الذى يترجم أحاسيسه ·· والمخرج ما زال موجها حواسـه الى دقات الدف المعبرة ·· وحين انسابت أنغـام الآلات الأخرى ·· أشار المخرج الى العازفين بالتوقف ··

ثم وجه حديثه الى عم عدوى قائلا :

ـ ثانية يا عم عدوى ··

تطلع عم عدوى الى المخـرج فى بلاهة ·· وقد عقد الخوف دهاءه ·· وتراءى فى عينيه سؤال حائر :

ـ هـل أخطأت ؟ !

بأدب جم ·· كرر المخرج طلبه ·· علت ضربات الدف أقوى وأعمق تأثيرا ·· بينما تسربت الدهشة الى وجوه الحاضرين ··

وابتسامة تضيء وجه المخرج ·· وحين انتهى عم عدوى ·· اتسعت ابتسامة المخرج ·· أيضا ابتسم عم عدوى حين لمح البشر على ملامح المخرج ·· وشعر بشيء غريب ·· لذيذ يقتحم قلبه اليائس ·

مرت ساعة وأخرى وانتهت جميع البروفات ·· وضع كل آلته فى حقيبته ·· وحذا حذوهم ضابط الايقاع ·· بينما عادت أساريره الى سيرتها الأولى ·· وهم أن يودع المكان ·· ولكنه سمع المخرج يناديه ·· كاد أن يفتح حقيبته ويعود الى مكانه ·· لكنه سمع المخرج يستدعيه ·· تنقلت عيناء بين الحاضرين ·· وكأنما يقول خذونى ·· وتوقف أمام المخرج ··

انتبه الجميع فى صمت ·· نظرات الاستغاثة على عينى عم عدوى يوزعها على الحاضرين ·· **وأخيرا استقرت عيناه على المخرج الذى قال فى حرارة وصدق :**

ـ عظيم يا عم عدوى ·· أنت فنان قدير ··

تمتم عم عدوى فى سره :

ـ فنان قدير !

··· حين أضاف المخرج ··

ـ ولذا قررت التعاقد معك لتضع الموسيقى التصويرية لفيلمى الجديد ·· وستكون بالدف فقط ··

شهق كل أفراد الفرقة متبادلين نظرات الاستنكار ·· موجهين نظرات الغيظ الى المخرج ·· وعم عدوى فى حالة انعدام الوزن ·· وعندئذ فتح المخرج حقيبته ·· وأخرج ورقة وقلما ·· وكتب عدة كلمات ·· ثم قدم الورقة الى عم عدوى قائلا :

ـ وهذا العقد ·· تفضل ··

انمحت كل التعبيرات من الوجوه ·· وحل محلها الحسد ·· أمسك عم عدوى الورقة وجعل يقلبها غير مصدق ·· حائرا ·· فهل يأخذها ·· أم يسلمها لرئيس الفرقة ·· وكانت الدهشة المذهله ·· حين أخرج المخـــرج من حافظته عشر ورقات من فئة العشرين جنيها ·· وقدمها بينما تفوه :

ـ وهذا المقدم ·· وغدا باذن الله سأمر عليك فى مثل هذا الوقت لنبدأ العمل ··

اخذ عم عدوى الورقات العشر بعد تردد شديد ·· لم ينبس حرفا ·· وقد انزلقت قطرات العرق على بشرته لتتقاطر على صدره ·· وتذكر كلمات المخرج اليه ·· أضاءت وجهه ابتسامة ·· جعل يتلفت حوله·· ضحك ·· استمر يضحك ·· اشتدت ضحكاته·· أحسست كأنها تملأ الدنيا ·· نظر الى الأوراق فى يده ·· ارتفعت قهقهاته وكأنما يعبر عن بؤساء الأرض أجمعين ·· هرول قليـــلا ثم هتف فى ذهول :

ـ ها هو المبلغ ·· هو هو الأمل ·· ستجرى لك العملية يا ابنتى الحبيبة ·· سيعود اليك بصرك ·· وأرى عينيك الجميلتين ·· وأخذ عم عدوى يعدو ·· بينما يردد :

ـ أنا فنان قدير ·· أنا فنان يا عالم ·· أنا ··

الحاضرون تلاقت عيونهم ·· على وجوههم حل الهدوء ·· ولم تمض لحظات ليستأذن المخرج مودعا ·· تحوطه نظرات الاعجاب والتقدير ·· وقد رأيت المخرج ·· كأنما تستطيل عنقه ·· وكأنما رأسه يرتفع ·· ويعلو ·· ويسمو ·· حتى أضحى عملاقا ··

ولم أعد رؤية رأسه فقد اندست فى السحاب ·· وجدتنى أنطلق وأعدو بكل قوتى ·· ومن خلفى صديقى يناديني ·· كأنما يناديني من أعماق بئر ·· وبعد قليل ذابت نداءاته ··

خلف الجدران ·· بعيدا عن الأضواء اناس موهوبون ·· فى يأس يعملون ·· فى فنهم يعانون ·· لفقرهم يتألمون ·· ولا يجدون لهم مكانا بين الزحام ·

الرحيل

أفلت من الزحام يلهث ·· رنا الى تذكرة السفر فى يده غير مصدق ·· تنفس فى راحة ·· وأضاءت وجهه ابتسامة بينمـــا هتف فى نشوة وشوق :

ـ سألقاها بعد يوم ·· أو بعض يوم ··

ما لبث أن سبح فى بحـــر خياله المائج ·· هاجت كوامنه والتهبت أشواقه ·· فاضت الدموع على خديه ·· ولم يدر بالعجوز الذى تتأمله ·· بودها لو تجوس فى أعماقه وتقف على سبب بكائه ·· خطا كالنائم ·· ارتطمت قدمه بقدم العجوز ·· كاد أن ينكفىء ·· استند على مقعدها ·· جاء وجهه قبالة وجهها ·· أوشك أن يلثمها لولا أن اصطدمت عيناه بليفة بيضاء فوق رأسها ·· ليتها هى ! ·· انها تبعد آلاف الأميال ·· سيلقاها بعد يوم أو بعض يوم ·· سيكون اللقاء حارا ملتهبا ·· سيعانقها ·· ويدمعان ·· لن تطفىء الدموع اللهيب ··

أفاق على أصابع العجوز تداعب خده ·· الحنان يشع من عينها ·· عانقته أمه قبل الرحيل ·· اكتفت هى بنظرة ·· يالها من نظرة ! ! ·· تأمل راحته ·· لم ير التذكرة ·· قدمتها اليه العجوز قبل أن يجن ·· اختطفها وطار ليعد لرحلة العودة ·· الفرحة تغشى وجهه وتنعكس على محياه ·

فى منزلها ·· الصمت يملى ارادته ·· والسكون ثقيل ثقيل ·· والحركة مشلولة ·· باب الشقة مفتوح على مصراعيه على غير عادة ·· لعله استعداد للقاء عائد ·· أو لوداع حبيب ·· رائحة ثقيلة غريبة تتفشى فى المكان وتجثم على الأنفاس والصدور ·· والاطفال هاهم مجتمعون صامتون ·· ساكنون ·· ! ·· لا يعقلون ما يجرى ·· ولكنهم يدركون بمشاعرهم ·· الحزن فى عيونهم خير معبر ·· بالأمس كانوا يملأون الدنيا سعادة ·· تتطاير بسماتهم وضحكاتهم فيشع الحبور ·· هذه الحجرة هى مصدر الأحزان ·· وهذا الفراش حوله اناس واجمون مطرقون ·· يعيشون لحظات انتظار قلقة ··· سحقا للانتظار ·· ومن ينتظرون ؟ ·· العائد الحبيب ·· أم زائر ثقيل الظل والوطأة ؟؟ ·· شاخصين جميعا الى جسد مكوم هو منبع الأحزان ·· من بين الأغطية يطل وجه ·· أو شبح برزت عظامه ·· وعينان واسعتان ·· قلقتان ·· شتان بين قلقها وقلقهم ·· تستقران على صورة معلقة ·· لا ريب أنها صورة الحبيب البعيد ·· على شفتيه ابتسامة عذبة متفائلة·· تندت العينان بالدموع ·· ظلت مستقرة لفترة ·· لعلها تقرأ الذكريات ·· ما أحلاها ·· وما أعطرها !! ·· والصور تتراءى·· والمشاهد تتوالى فى سرعة ·· والأنفاس تتردد ·· بطيئة متثاقلة ··

يا لجنون الخيال ·· ويا لرقته وتحننه ! ·· كأنه يطرق الباب ·· بالتأكيد هو ·· كأنها تراه ·· تعرف وقع أصابعه ··

فالطرقات رقيقة ·· كأنها دقات السعادة ·· بل هذه المرة أكثر رقة ·· كل الدنيا ترقص وتغنى ·· ها هى تراه يدخل ·· ابتسامته يتوجها الحياء ·· نفس ابتسامته يوم طلبه يدها ·· لو طلب روحها لوهبتها له ·· كان الحفل متواضعا ·· ومع ذلك أفعمته الفرحة القلبية ·· توالت لقطات السعادة ·· نشرها فى كل ركن فى هذا البيت ·· حلقا كطائرين ·· جريا وتقافزا وتشابكت أيديهما ·· كانت الدنيا جنة ·· وهو هو ذا يقول ·· انها تذكر المكان والزمان ·· والنسمة التى كانت تداعب شعره ·· وملامحه ·· وصوته الحاتم :

ـ أنى يضم العصفورين عش ·· فيحلو الهمس وتعذب النجوى ·· ويسرى الدفء ·· أنى يسمعان شقشقة العصفور الصغير رباط الحب ؟

يوم بعد يوم ·· مرت كتوانى ·· توالت الشهور كأنها يوم أو بعض يوم ! ·· بدت مسئولية الرباط وغز يشك الجسدين ·· يؤلم روحيهما ·· لو يعيشا بين أجزاء الطبيعة على الحب ·· أما يكفى الحب لتأثيث العش ·· ألا يدفىء الحب العصفور الصغير ·· يقولون ضرب من الخيال والأوهام ·· يقولون ويقولون ولا مفر من الانصات ·· ولا مفر من الامتثال ·· لو يعرفون الحب ·· تململ قلبيهما ·· لا مندوحة من الرحيل ·· لا مناص من الفراق ·· ولابد من الانتظار ·

حانت ساعة الرحيل ·· فى ذلك اليوم بدت علتها ·· طغت عليها أسبابها ·· أمست داء لا يشفيه دواء ولا يحد من وطأته ·· تحيرت العقول ·· ومع الحيرة دب اليأس فالدواء عضال ·· يستفحل ولا شفاء ·· هكذا أيضا قالوا ·· ان كان للداء قلب فلا ريب أنه من الصخر ·· بلا رحمة ·· بدل الربيع خريفا ·· والشباب هرما ·· ذبلت أوراق الوردة الحمراء ·· مال عنقها ··

قلبها ما زال يدب بالحياة ·· ينبض باسم البعيد ·· من عينيها أطلت عبـرة تترحم عـلى ما فات ·· من أعمـاقها خرجت أنة ·· سيعود العصفور ولا يجد وليفته ·· ولن يجدها ·· عبثا سيكون بحثه ·· سيرجع نداءه الصدى ·· فى هذه الحجرة ·· ومن هذا الفراش تضرعت بألا يطير الخبر ·· فى رسائلها كانت الكلمات تنطق بالفرحة ·· ومن ثناياها يقطر الدماء ·

فى مكان الرحيل كان العمل على أشده ·· من أجل تأثيث العش ·· الأوراق الحمراء تتراكم ·· والقلب يزداد رهبة على رهبة ·· يعتصره خوف ما لبث أن تحول الى ذعر من المجهول ·· مضى عام ·· كان فى الحلقين مرارة ·· وقد أشرف القلبـــان على الجفاف ·· كل الآمال تكسرت الا أمل اللقاء ·

مرت الساعات بتثاقل السلحفاة ·· العين مسهدة ·· والقلب قد وهنت ضرباته ·· الطائرة تمخر عباب الفضاء بطيئة ·· كأنها عربة يجرها حمار عجوز بخل عليه صاحبه بالطعام ···

انتقل بصرها الى نتيجة الحائط ·· انه ·· انه يوم اللقاء ·· اليوم يوم اللقاء ·· ! ·· كيف ؟ ؟ ··

أسرع نبضها قليلا ·· لمعت عيناها الباهتتان :

ـ ليتنى ألقاه ·· ليت يمتد عمرى فيكحل عينيه بنظرة تشد أزره ·· لحين اللقاء بلا فراق ·· لا تتعجل يا عمرى ·· ولتنـأى يا فنائى ساعات ·· أستحلفك ·· ولأموت وصورته آخر ما أرى فى عالم الأوهام ··

ركب العربة ·· تحت ابطه جهد عام ·· دقات قلبه تزلزله ·· الدقات رهيبة ·· لو تخترق عيناه الجدران التى يحجبها عنه ·· نظرتها قبل الرحيل ما زالت فى عينيه ·· يرى نظرة الأمل من خلال دموعها ·· وقد أتى حاملا الأمل ··

علاها شحوب الموتى .. لعل قد نفذ صبر الموت ولم يمهلها حتى النقاء .. ولعله لم ينصت لاسترحاماتها .. المحيطون بها .. يتمنون ألا تطول سكرات الموت .. كل ينادى فى لوعة على الموت المتكاسل .. الموت أرحم من العذاب .. عذابها .. وعذابهم ..

ـ لتمهلنى قليلا أيها الموت .. رفقا أيها الموت ..

التفتت الى الحائط .. الذعر يملؤها .. لعل الموت قد شق الجدار .. يشع من عينيه الرعب والسخرية .. فحيحه يصك أذنيها .. ليس فى مقدرتها أن تغلق عينيها فلا ترى بشاعته .. دنا من البيت يشتم الرائحة الثقيلة الغريبة .. ارتجل من العربة أمام البيت الصامت .. المفروض أن يسرع .. لكنه وقف يفكر .. عجبا كيف يقف .. وكيف يستطيع أن يفكر .. مشى بطيئا .. لا شك أن فكرته سخيفة حمقاء .. وكيف .. كيف تطيعه قدماه .. صرع احساسه فكرته المجنونة الخرقاء .. تقافز مسرعا .. دقات قلبه أسرع من قدميه .. الموت يدنو منها .. مخالبه على حافة الفراش .. ابتسامته الساخرة تتسع .. اشتدت بشاعته .. صم فحيحه أذنيها .. لا تستطيع أن تغلق عينيها .. أو تسد أذنيها ..

ـ أقبل مخالبك .. أتوسل اليك أيها الموت ..

باحساسها تسمع وقع قدميه .. فى هذه المرة تدب .. لقد أنهكه انتظار عام طويل .. وقف على باب الحجرة .. لم تره .. أيضا شعرت به .. تسمع صوت أنفاسه المتلاحقة ..

ـ لقد خصموا من عمر الحب قرنا من الزمان .. افسح لحبيبى أيها الموت ..

اندفع اليها ·· أفسح الموت رغما وعنوة ·· التقت عيناهما ·· انها تراه ·· نعم ·· اللقـاء حقيقى ·· استطاعت أن ترفع يديها لتعانقه ·· ضمها لأول مرة ·· ضغطت على ظهره دون حياء ·· تحيرت الأفهـام ·· كيف للموتى أن يتحركوا ؟! ·· اندفع الدم فى وجه الميت ·· توارى الموت قبل أن يحرقه بهاء الحب ·· الحياة ·· سبح القارب نحو العش ·· سرى الدفء ·· وزالت الأسقام ·

الحدباء واللص

ظهرت رءوس بعض أفراد قطيع الغنم ·· قادمة من الحارة الى « وسعاية » القرية ·· وسرعان ما زحف كل القطيع وانتشرت فى « الوسعاية » ـ وملأت المكان ثغاء ·· والثغاء عند أطفال القرية يعنى جرس الألعاب ·· ما أن يأتى الى أسماعهم حتى يتوقفون عن ألعابهم ·· تتلاقى عيونهم فى نظرات مرحة ـ ثم يتسابقون من كل صوب تسبقهم صيحاتهم الطفولية السعيدة ·· يندسون بين الغنم ·· الذى تشرد أفراده هنا وهناك فى ذعر ·· يحصرونها فى شقاوة ويناطحون كباشها فى تبليل وصخب ··· وكان الأولاد العفاريت يعاكسون الغنم بقصد اللهو ـ ويقصدون أيضا اثارة سعدية الحدباء راعية القطيع ·· ترسل الغنم أصواتها منزعجة ·· عندئذ لا تتقاعس سعدية ·· بل تتدحرج مسرعة رأسها بين كتفيها تدور حول الأفراد الشاردة لتعيدها الى باقى القطيع ـ يقصدها أحد الصغار الأبالسة ·· يجرى منحنيا بين الغنم ·· وما أن يقترب منها حتى يدفعها فتقع على الأرض ··

ولا يضيع الآخرون الفرصة فيهرولون ويلتفون حولها ·· يدورون حلولها ·· بين تصفيقهم وصياحهم ·· تحاول سعدية النفاذ من الدائرة ·· لكنها تصطدم بأجسامهم أو تدفعها أياديهم ·· ولا يكتفى الصبية بهذا ·· بل ينقضون عليها يضربونها بأياديهم ويركلونها بأقدامهم ·· ولا تملك سعدية الا أن تصرخ مستغيثة ·· يسمعها أحد المارة من الفلاحين فيخف لينتشلها من بينهم ·· ثم ينهرهم ·· ويفر الأطفال ضاحكين ·· تنفض سعدية التراب عن ملابسها وشعرها ·· ثم تواصل دحرجتها مع غنمها والدموع تتساقط على خديها المغبرين · وتصحبهم الى مرعى متطرفة فيطعمون ·· وسرعان ما تندمج معهم ناسية اساءة الأطفال ·· وبعد قليل تجلس لترقبهم يضاء وجهها حين تفتر شفتاها عن ابتسامة عذبة ·· فالغنمات يتزايد عددها بمضى الأيام ·· وما تلبث أن تتلاشى ابتسامتها ليحل على ملامحها حزن عميق ·· لعلها تذكرت أمها رحمها الله ·· التى كانت تؤنس وحشيتنا ·· وتحميها من عبث الصغار ·· تتمتم شفتاها بالترحم عليها وتمسح دمعة من على خدها ·· وما أن تتوارى الشمس خلف النخيل فتسوق غنمها الى الترعة فيشربون حتى يرتوون ·· ومع دخول الليل تعود سعدية الى كوخها ·· تدع الغنم يدخلون وتسرع الى الغرفة الوحيدة بالكوخ لتطمئن على والدها القعيد ·· ثم تنبرى فى رعايته ·

لم تكن الحدباء سعيدة ·· فلا يوجد ما يدخل السعادة الى قلبها ·· وأيضا لم تكن بائسة بما تحمله هذه الكلمة من معنى ·· فقط كانت تقضى أوقاتها وأيام عمرها بين تربية غنمها ورعاية والدها مؤنسها الوحيد فى الكوخ والقرية والدنيا بأسرها ··· مطلقا لم تفكر فى شريك غيره ·· بل أنها تؤمن بأن الله خلقها بهذه الهيئة لتتفرغ له ·· ولا تفكر فى سواه ·· واعتادت رغما عنها ألاعيب الصبيان ومضايقاتهم ·· اعتادت أيضا تقزز الكبار

منها وسخطهم عليها .. ولم تستغرب أن تسمع اسمها مقرونا بالحدباء من الغلمان والرجال .. والنساء حين يطلقنه ليخفن به صغارهن .. هكذا خلقها الله .. وهذا قدرها لا مناص .. فقط تسرى عن نفسها وتهدىء بالها بقليل من الدموع .

كان لسعدية رحلة أسبوعية .. فتصحو كل ثلاثاء مع آذان الديكة قبيل الفجر .. فتذهب الى السوق مصطحبة غنيمة من الغنيمات فتبيعها .. وتبتاع من ثمة طلبات والدها واحتياجات البيت .. وكانت تضع ما يتبقى داخل « بوشة » متخفية فى ركن أمين بالكوخ .. لينفعها فى أيام العوز على حد قولها .

غرقت القرية فى ظلمة الليل .. شملها السكون الا من نوبات متقطعة من نباح الكلاب ... على مشارف القرية ظهر شبح لرجل فارع الطول بين أشباح النخيل العملاقة .. وكان ملثم الوجه .. يمشى ببطء بينما يتلفت كثيرا .

كان لا يعكر صفو القرية الا سليم .. فهو لص فاجر رهيب .. يسلب المزارع ويسطو على المنازل .. وكل أيام وقبل الفجر .. يشق الصراخ السكون معلنا عن سرقة من أحد بيوت القرية .. وكل الأهالى يعرفونه حق المعرفة .. لكنهم لا يبلغون عنه خوفا من انتقامه .. فكانوا يكتفون بالدعاء عليه .. تاركين أمرهم لرب لا يغفل ولا ينام .. يسألونه أن يخلصهم من هذا اللص .. وليعوض المنكوب صبرا وخيرا .. وفى مثل هذه الليالى لا ينام الأطفال .. بل يتلاصقون ويتحاورون فى همس والرهبة تملأ قلوبهم .

وقف الشبح خلف شجرة معمرة . مورقة .. والشجرة أمام كوخ سعدية .. أتى الى سمعه وقع أقدام تقترب نحوه ـ حبس أنفاسه .. هدأت نفسه حين رأى كلب سعدية .. دار

الكلب حوله بينما يهز ذيله دليل الفرح ·· يشب عليه مداعبا ·· ربت سليم على رأسه ومسح رقبته ثم أشار له بالابتعاد فرضخ الكلب لأمر سيده !! ·· وما لبث أن توسد رجله وراح في سبات عميق ·

بحذر وخفة صعد اللص فوق الشجرة الكبيرة ·· مشى فوق أقرب غصن للكوخ ·· برشاقة قفز فوق الحائط ·· انبطح على بطنه ·· رفع رأسه ·· جال ببصره من حوله ـ قام منحنى الظهر ·· مشى على يديه ورجليه كالأرنب ·· توقف ·· من وضعه نظر في أرجاء الكوخ ·· رأى السلم الخشبي على الحائط ·· لابد أنه ابتسم من تحت اللثام ·· السلم سيسهل المهمة ·· كأنه في انتظاره ·· لقد نسيته سعدية ·· أو أنها لم تتوقع هذه الزيارة ·

نزل سليم على درجات السلم لا ينتفض ـ ولا يجد الخوف سبيلا الى قلبه ·· فكيف يرهب ضعيفين ·· « مسخوطة » وكسيح ·· أصبح في الفناء ·· فتش في كل أركانه وزواياه ·· لم يعثر على ما يبحث عنه ·· اشتد غيظه ·· وقف برهة يفكر ·· اتجه الى غرفة الكوخ اليتيمة ·· وقف على بابها المغلق ·· دفع الباب برجله ودخل· فوجيء بسعدية تحدجه بنظراتها ·· لابد أنها كانت تنصت الى وقع أقدامه ·· وقفت في مواجهته ·· بلعت لعابها ·· لعب لسانها في فمها ·· **خرجت الكلمات ذليلة متوسلة :**

ـ ماذا تريد يا عماه ؟!!

خلع اللص لثامه ·· فلا فائدة له أمام ابنة أخيه ·· ولا حتى أمام سائر أهل القرية ·· ألقى نظرة على كومة العظام المتهالكة على الأرض ·· وأجابها دون أن يكلف نفسه النظر اليها ·

ـ تعرفين جيدا ما أريد ·· وما سبب هذه الزيارة الليلية ؟

ثم أضاف فى وقاحة :

ـ وهل بالقرية لص غيرى ؟

ـ تعلم أننا ـ أننا فقراء ·· نأكل قوتنا بالكاد ·

ابتسم اللص ابتسامة ماكرة ·· ثم قال من خلالها :

ـ بل تدعين الفقر يا بنة أخى ·

ثم تبدلت سحنته فجأة وقال فى غضب :

ـ أين المال ؟

ـ المال ! ·· اننا لا نعرف عنه الا اسمه ·

ـ أتمكرين على أيتها الحدباء اللئيمة ؟

تنبه سليم الى حركة كومة العظام ·· والأنفاس تتردد منها بطيئة ـ وصوت واهن يخرج منها :

ـ أ أنت يا سليم ؟!

ـ كما ترى يا أخى العزيز ·

ـ ماذا تريد فى هذه الساعة المتأخرة ؟

ضحك اللص ساخرا :

ـ تستطيع أن تسـأل ابنتك ·· فهى تعرف ما أريد حق المعرفة ·

كانت سعدية تعمل فكرها ·· فيما تصنعه أمام هذا الوغد ·· ثم هتفت فى ذكاء :

ـ تعلم يا عمى أننا لا نملك الا الغنم ·· نعطيك غنيمة ··

تقلص وجه اللص غاضبا ·· ثم انطلق يضحك كأنه الشيطان ·· ثم قال فى ثقة شديدة :

ـ مالكم سيكون فى حوزتى ·

جعلت سعدية تتخيل حالهم بعد أن يحتال اللص على مالهم ·· وثمرة كفاحها فاشتد جزعها ·· وكأنما استمدت من الضعف قوة ومن الجزع جرأة فقالت :

ـ اصنع ما بدا لك ·

وكأنما صفعته سعدية على وجهه بتلك العبارة فاستشاط قلبه غيظا ·· فكيف لهذه « المسخوطة » أن تتجرأ على تحديه ·· ولم يلبث أن انقض عليها وأمسكها من تلابيبها وجعل يهزها بعنف بين تهديده ووعيده · ثم قذف بها بعيدا فانكفأت على ظهرها المحدودب فأعادها الى العقود ، ولم يكتف بهذا ، بل قفز بجانبها كالهر وأحاط عنقها بيده ·· ولكنه نظر لأخيه الراقد ·· فغير رأيه وترك سعدية ·· وانقض عليه وأمسك عنقه بكلتا يديه ··

وأخذ يضغط بكل قوته صائحا :

ـ أين « البوشة » تكلم والا أزهقت روحك ·· وروح ابنتك

فزعت سعدية حين رأت هذا المشهد ·· قفزت من فورها ·· جعلت تدفعه بكل قوتها ·· ولكن كيف لها أن تزحزح هذا المارد ·· عبثا ضربته بيديها فكأنما تضرب على صخر ·· التفتت الى والدها هالها احمرار وجهه وبروز عينيه وانتفاخ كل أوردته ·· وما زال اللص يصرخ طالبا « البوشة » ·

لم يستطع القعيد الا أن يجيب اللص بحشرجة وهطرسة غير مفهومة ·· انقضت سعدية على يد اللص تنهشها بأسنانها ·· صرخ بينما سحب يده ·· وجذبها من بين أسنانها ·· جن جنونه حينما رأى الدم يتساقط منها ·· رفع يسراه وصفع وجهها صفعة ترنحت لأثرها وسقطت على الأرض ·· وعيناها تتحركان فى

محجريها يملؤها الغضب والرعب .. بهتت حين سمعت شهقات والدها .. ذعرت حين رأت رأسه يرتمى على كتفه .. كما اشتد فزع سليم حين رأى جريمته والتى لم يأت لاقترافها .. برقت عيناه واتسعت .. وجه نظرة حقد الى سعدية المذهولة ثم الى الجثة المسجاه بجانب قدميه .. بعينى رأسه رأى حبل المشـــنقة يلتف حول عنقه .. يضغط عليه لينزع روحه من جسده ... تحسس رقبته .. الأهالى لا يبلغون عن سرقاته خوفا .. هذه ليست سرقة .. انما جنـاية .. جريمة قتـل سرعان ما تفـوح رائحتها .. أيهرب من الكوخ والقرية ويختفى الى الأبد .. والمال ؟ .. أيدعه لتلك الحدباء اللعينة .. لمعت أوراق النقد فى عينيـه .. انبا زاهيـة براقة .. ليهرب .. لكن بعد أن يستحوذ على المال .. **ما زالت سـعدية فى ذهولها .. نظر اليها .. لف عنقها** بيده :

ـ جـاء دورك أيتها الملعونة .. قتلت أخى .. فما بالك أيتها الحقيرة .

شعرت الحدباء بدنو الموت .. ما أحلى الروح ! .. رفعت يديها مستسلمة ومشيرة الى أحد الأماكن .. حينئذ رفع يده .. تنفست أنفاسا متلاحقة عميقة .. لعلها تسترد روحها .. وكان فكرها مشغولا .. وقالت فى خبث :

ـ سأعطيك كل المال .. وعليك أن تتبعنى .

خرجت الحدباء من الغرفة .. تبعها اللص .. وقفت أمام كوم صغير من التبن .. دست يدهـــا فى أعماقه .. فأخرجت « البوشة » .. محصلة تعبها وكفاح والدها قبل أن يقعده المرض .. اختطفها سليم .. تسربت الفرحة من قلبه الى وجهه .. ابتسم .. حقق أمله الذى كان وليدا .. الذى رعاه حتى نما وترعرع ..

فتح « البوشة » .. اتسعت ابتسامته حين رأى الأوراق المالية .. ارتشف لعابه الذى كاد أن يسيل .. نظر اليها بامتنان لصونها أمانته .. لفت نظره أن وضعت يدها على رأسها تصطنع أن بها دوارا .. طرحت نفسها أرضا .. استغرب سليم .. خدعته التمثيلية التى حبكتها سعدية .. اتسعت دهشته حين رأى احدى الغنيمات تتقدم ناحيتها وتنحنى عليها وتلعق وجهها .. كاد اللص أن يحدث الغنيمة ويشهدها على براءته من موت سعدية ـ دق قلبه حين شعر بدنو الفجر .. هرول ناحية باب الكوخ .. فتحه وخرج .. لم يهتم بغلقه .. ولم يلتفت الى الحدباء التى نطت مسرعة .. دخلت الغرفة .. التقت عصا والدها الغليظة التى كان يهش بها على غنمه .. جذبت سكينا كبيرا من تحت فراشه .. ألقت نظرة وداع على جثة والدها .. أخالت بأنها سمعته يحثها على تنفيذ فعلتها .. مسحت دموعها .. ضغطت أسنانها حتى سمعت صريرها .. هرولت الى الخارج خلف عمها اللص قبل أن يزوغ منها .. أخذت تجرى وتختفى خلف النخيل .. وصدرها ينتفض والتصميم يملؤها .

دنت سعدية من اللص الذى أنصت الى وقع قدميها .. توقف .. التقطت بعض الحصباء .. قذفت باحداهن فى ناحية قريبة منه .. لم ينتبه لها .. رمت بأخرى .. وثالثة .. جعل يتلفت حوله فى رهبة .. خطا ناحية الصوت .. أصبح ظهره مواجها لسعدية .. خطت على أطرافها خلفه .. دنت منه .. تذكرت شهقات والدها الأخيرة .. نظرت الى محصلة الكفاح فى يد اللص .. أخفت السكين فى صدرها .. أمسكت العصا بكلتا يديها .. رفعتها فسمعت دويها وبقوة أوقدها الانتقام .. وأجج نارها فكرة وجودها بعد والدها . هوت بالعصا على رأس اللص .. وانهالت تضرب بعنف وجنون .. لم يدر اللص من أين يأتى اليه الضرب الوحشى .. كأنها شياطين

الأرض اتحدت لتنتقم لضحاياه ·· لم يستطع أن يدافع عن نفسه فهوى الى الأرض بين زعيقه وعوائه ·· لم تتوقف يديـــا حتى سمعت شخيره · الذى انبعث من فمه وأنفه ·· أصابها الاعياء ·· جلست ترقبه بين أنفاسها المتلاحقة وضحكاتها ·· شعرت بالراحة ·· وكأنها غفت لفترة ·· صحت على أصوات أهالى القرية وجلبتهم ·· ومن خلال دموعها رأت الجموع ·· جعلت تتأمل الوجوه ·· لم تستغرب الفرحة التى تعمها ·· ولا نظرات الاعجاب التى يرمقونها بها ·· لكنها اندهشت حين رأت الأطفال يلتفون حوليـــا فى دائرة كعادتهم ·· لكن فى هذه المرة يصفقون لها ·· وينشدون ·· « الثعلب مات مات ·· وفى ديله سبع لفات » ·

انهمرت الدموع من عينى الحـدباء ·· قامت والاعياء باديا على أساريرها ·· انحنت تخلص « البوشة » من يد اللص القتيل ·· شعرت بالسكين التى لم تستخدمها ·· سحبت عصاها وعادت الى كوخها فى هدوء ·

فى عصر هذا اليوم ·· قام أهل القرية جميعا يشيعون جثمان عم أمين والد سعدية الشهيد ·· وكانت من بينهم تتدحرج الحدباء تتخيل مستقبلها المظلم دون والدها ·· ولم تعش الا عدة أيام ·· فقد مرضت كمدا على والدها ·· ولحقت به ·

فى هذه المناسبة من كلّ عام · كانت القرية تقيم احتفـالا لاحياء ذكرى سعدية الحدباء ·· يتغنون بقصة بطولتها · وفى الصباح يهرع الجميع الى المقابر لزيارة قبرها ·· وفى مقدمتهم الأطفال الذين يضعون حوله العيدان الخضراء . وهكذا عاشت الحدباء ذكرى لن يمحوها تراكم السنين ·

اذا صادفك ما يثير السخرية فلا تسخر ·· فلربما كنت أمام بطلا ضيعته الأيام ··وطمس بريقه الحرمان وكان البريق ممكن أن يضىء طريقا فى الظلام ·

الفـرار

ـ طلقنى ·

مجرد كلمة صرخت بها الزوجة ·· لكنها تعدل طعنة او قذيفة فتكت بكرامة الزوج ·· هـذا الذى تسمر مكانه يرمقهـا بعينين مذهولتين ·· ويركز بصره على شفتيهـــا الرقيقتين ·· القاسيتين ·· والتى ما زالت تكرر الكلمة فى عناد واصرار ··· مؤكدة أنها فى كامل وعيها ·· ترنح الزوج من أثر الطعنة ··· ارتج عوده ·· أحس بأن الدنيا تغيم فى عينيه فتهالك على أقرب مقعد ·· وجعلت نفسه تتلوى من فرط الاهانة ·

فى نافذة الشقة الموجهة ·· كان الحبيب العاشق واقفا ·· عيناه على نافذة حبيبته المغلقة ·· صكت الكلمة أذنيه ·· الكلمة لها ثقلها ·· وانها تعـد لديه ·· صرخة ألم ·· هتاف يطـالب بالتحرر من هول القيد ·· وظلام السجن ·· الكلمة تؤكد ما بينهما ·· وتلقى على كاهله التبعة ·· ذرفت عيناه الدموع ·· ما أطيب

التبعة الى نفسه ! وما أحبها الى قلبه ! .. انها الحلم الذى طالما راوده .. وكم تمنى لو تفوه أبو باح به .

أفاق الزوج قليلا من صدمته .. وخصـــوصا حينما ذهبت عنه الى مكان آخر .. عاد عقله المرتاب يعمل بنشاط غير معهود .. تساؤلات الشك أسياخ حديدية تخرق صدره .. ان هذا التحدى ليؤكد عهدها مع غيره ..

– وهل .. هل هناك من هو أفضل منى ؟ .. لو صح ذلك لرد أهلها يدى .. أو .. أو انها تبغضنى .. ظننت أنها ستتعود هذه الحياة حين تعمى عن غيرها ..

تأوه فى لوعة مستطردا :

– كيف أوقف تمردها وعصيانها .. وأجبرها على الاذعان لرغبتى ورؤيتى .. دبت الحمية فى عروقه .

– لن أتيح لها الفرصة .. لن أطلقها .. ولأدوس كبرياءها .. وأحطم أنفها .. ولتذعن لارادتى .

عاش الثلاثة .. الزوجين والعاشق .. أياما مرت ساعاتها ثقيلة .. سمجة .. فهى تحلم بالفرار من ظلام الزوج الى بهـــاء العاشـــق .. والزوج يعيش بين وخـزات الظنـــون .. وعقدات الشكوك .. والعاشق أسير فكرة يفتش عن ثغر ينفذ منه الى حبيبته فيرحمها ويرحم نفسه من العذاب .. وكان قد عشق النافذة التى كانت بمثابة طاقة الأمل التى يطل منها قمره .. والنافذة قد أغلقت .. سدتها يد السجان .. وها هو فكره ينطلق من عقاله ويدبر أمـــرا .. !

فى ليلة الزفاف .. أول أيام العسل .. قال ببساطة :

– عدينى بألا تفتحى النوافذ ..

مطلب جائر ·· غريب !! لابد أنها غير الحبيب الولهان ·· ابتسمت فى خفر ·· وكانت الابتسامة أبلغ رد ·· فى صـــباها داعبتها الأحلام ·· بعينى صباها رأت السجن ·· يفيض عذوبة وجمالا ·· ويزخر بالسحر والسعادة ·· وقد خطت اليه باسمة الثغر ·· راقصة القلب ·· تنتظر مجهولا فى شوق ·· والعش السعيد تبرق محتوياته ·· داخله دنيا تتلألأ ·· تصل الى مسمعها بقايا الزغاريد تنبىء بفيض من النشـــوة والفرحة ·· وكانت سخرية الأقدار ·· كانت مؤامرة دبرتها الأيام ·· كانت خدعة حاكتها أحلام الصبا ·· تحقق الحلم ·· دخلت السجن ·· وكان سجنا حقيقيا ·· بل أشد قسوة ·· ففى السجون فتحات تطل على الحياة ·· سجنها حوائط صـــماء ·· أغلقت نوافذها يد زوجها بذلك الوعد المشئوم ·· والصمت ·· أضحى أنيسها الوحيد ·· فى صمت ترى ما يحيطها من جماد صامت فاقد الروح والحس ·· فى صمت تروح وتغدو وقتا طويلا لا نهاية له ·· لا تسمع الا وجيب قلبها ·· فى صمت تتألم ·· لسانها لا ينطق الا التأوهات ·· الأفكار فى رأسها تتناطح وتتفاقم ·· داخلها يئن ·· أنوثتها ·· آدميتها أرجوحة يلوحها الهواء العفن ·· الثقيل ··

سئمت الصمت ·· سئمت التجوال فى مناحى السجن ·· فقط تبكى ·· تصاحبها الدموع منذ أول أيام العسل ·· ولم تعلم أن للعسل مذاقا مرا ·· العالم خارج السجن ·· يرقص ويهلل ·· ويومض بالضياء ·· والأيام تعدها أعمارا ·· خارج السجن ·· زغاريد ·· وترانيم حـلوة ·· وكـلام ·· ما أحلى الكـلام ! ·· وكيف تتكلم ·· ومع من تتكلم ؟ ·· مع سجانها ؟ ! وأنى يتحدث السجين مع سجانه ·· أنى يصفو له ليحلو الحديث ·· كادت أن تنسى بنى البشر ·· ملت أن ترى تقاطيعها ·· !

سح العرق من نبت شعرها .. العالم خارج السجن يقيقه .. انه يسخر منها .. يغيظ لها .. فى الخارج البهاء والحب والنشوة .. فى الخارج الشباب .. الشباب فى جسدها يصرخ ويستغيث .. نفسيا تتحرق الى الحرية مهما كانت التضحية .. مهما كان الثمن .. الحرية هى الحياة ..

فى ذلك اليوم عاد الزوج من عمله .. قطع الدرج فى عدة قفزات .. وقف أمام باب الشقة المغلقة .. ابتسم .. أخرج المفتاح من جيبه .. قبل أن يمس المفتاح الرتاج انفتح الباب .. ارتد الى الوراء مذعورا كأنما أصابته لطمة .. تأمل الباب المفتوح .. أخاله ماردا فاغرا فمه ينوى ابتلاعه .. تقدم خطوة :

ـ اذا كان باب السجن مفتوحا .. فأين السجين ؟ .. أين ؟ ؟ !

صرخت نفسه .. أين السجين ؟!! .. الرتاج محطم .. أهى التى حطمته .. ؟ .. أو أن هناك شريكا .. ولكن .. من يكون هذا الشريك ؟ .. مستحيل .. خطا داخل الشقة .. قلبه يدق فى رهبة كمن تسوقه قدماه الى شرك . فاجأه الضوء المنبعث من النافذة ! .. التفت اليها فى ذعر .. النافذة مفتوحة على مصراعيها .. النسيم يدخل باردا .. قلب الشقة بحثا .. الرعدة تسرى فى سائر أعضائه وتتجمع فى قلبه وأطرافه .. الأفكار تتزاحم فى رأسه .. الصداع يشل تفكيره .

شعرت الزوجة بالاختناق يتشبث بصدرها ويزحف الى عنقها .. نظرت الى النافذة المغلقة .. تذكرت الوعد الجائر الغريب .. فى الخارج الحرية البيضاء .. من هذه النافذة سأطل على الحياة .. والوعد ؟؟

ـ وعد ؟ ! أللسجانين وعـــود ؟؟ ·· اندفعت تحنث فى وعدها وتفتـــح النافذة ·· انفتحت ·· هلت رائحة الحيـــاة ·· تنفست من أعماقها ·· تحركت عيناها الجامدتان ·· دبت الحياة فى صدرها وانتشرت فى جسدها ·· أطلت الى الشارع ·· صبية يلهون بلا ضوابط ولا قيود ·· بلا سجان ·· ما أروع الماضى ! ·· رنت الى السماء ·· كم هى ممتدة الأطراف ·· فى الفضاء تطير الأطيار ·· تهفهف وتحلق فى حرية ··

ـ ليتنى عصفورة فأهيم فى الفضاء ·· أقف على الأغصان ·· أداعب الورد ·· وأحاور الزهر أطير فى حرية كما يحلو لى ·· ·· وأملأ الدنيا بشدوى السعيد ··

كل نوافذ الشارع مفتوحة تستقبل الحيـــاة ·· النسائم تداعب الستائر ·· فى النافذة المواجهة كانت عيناه ترقبانها ·· لعلها كانت مثيرة للانتباه حين استقبلت أول نسائم الحـــرية ·· لابد أن عينيها لمعت وخدها تورد ·· لابد أنها ابتسمت للنسيم ·· ما قصدت أن تجذب الأنظار ·· ولا أن تثير الفضـــول ·· فقط كانت تتوق نفسها لأن تتنسم هواء الحرية التى حرمت منه أياما·· ساعات الأسر لا تنقضى ·· رغما عنها رفعت جفنيها لترى صاحب العينين ·· كانت متلهفة لرؤية آدمى غير زوجها ·· وجهه باسم ·· ما أجمل البسمة ! ·· قفزت صورة زوجها ·· وجهـــه المقطب ونظراته المتشككة ·· نظرات الشـــاب متفائلة واثقة ·· هو على النقيض من زوجها فكرا وسلوكا وطباعا ·· طالت النظـــرة ·· أيضـــا برغمها ·· فلم تلتفت الى ناحيـــة أخرى لتبدو طبيعية ·· اكتفت بقسط الحـــرية ذاك ·· انسحبت وأغلقت النـــافذة ·· وما زالت الابتسامة عالقة بشفتيها ·· مسح لسانها شفتيها كأنما تتذوق طعم الحرية ·· أكبرت فكرها الذى أوحى لهـــا ·· لم

تشعر بالندم .. لا ضير من التكرار طالما لا تخدع زوجها ولا تنتوى خيانته ..

مرت أيام .. المشاهد تتكرر لعينيها .. يعود اليها السأم .. أهذه هى الحياة الزوجية .. لقاء فى المخدع لقضـــاء متعة رخيصة .. أهذا منتهى الحلم ونهاية المطاف .. اليـــوم طويل بلا نهاية .. الفراغ يتسع من حولها وفى داخلها .. الضـــياع يحتويها ..

ذهبت تمارس عادتها الجديدة .. فتحت النافذة .. فى هذه المرة لم تستطع أن تنأى بعينيها فى ناحية أخـــرى .. فى عينيه شىء يجذبها .. يناجيها .. ابتسامته لا تخدش حياءها .. بل تعطيها الأمان .. فى عينيه نسيت كل شىء .. حتى نفسها ..

الأمل يبرق من جديد .. مصدر البريق النافذة .. عاشت أيامها سعيدة .. بقدر ســـعادتها يكون قلق زوجها .. وزيادة نجهمه .. وجه صاحب العينين صبوح مشرق .. شتان .. الرباط بين النافذتين تشتد أواصره .. بدأت النظرات مصادفة .. ثم أصبحت ولهى .. ثم أحاديث العيـــون الطويلة .. وابتسامات عذبة .. انسلاخ من العهود لقـــاء نافذة على حريتها .. وكثيرا ما حدثت زوجها دون حديث .. !

– أنت الذى أغلقت النـــافذة .. وأنت الذى أرغمتنى عـــلى فتحها لأتنسم الهواء .

.. قوى الرباط بين النافذتين .. تحدثا فى همس .. بثت اليه شكواها .. وكشفت عن لواعجها وما صنعت بها الأيام بين الجدران .. وكان حديثها أشعة وجدت طريقها الى قلبه .. تحاكيا كثيرا .. لو تدانيا لتعانقا عناقا حـــارا .. ولانتشر الدفء فى

جسـديهما المقرورين ·· انفتـح أمامها بحر فياض بالسعادة ·· تغترف فيه أنى زحف اليها الملل ·· عند لقائه ·· وحين تستعيد أحاديثه ·· والزوج شارد اللب ·· حائر العقل ·· زائغ العينين ·· لا يدرى سر سعادتها التى لم تفلح فى اخفائها ··

قبل الأسر ·· كانت تود الانفلات من التقاليد والانطلاق فى الحياة ·· تستقى لذات أحلها الله ·· ولكنها فلتت من قيد الى سجن ·· ما ذنبها لتسجن ؟ ·· ما جنايتها ؟! ·· كان بودها أن تعيش لحليلها بقلبها وعقلها وكيانها وجوارحها ·· لكنه طمس هذه الدرر بسـجنها ·· كرهت القيد ومن قيـدها ·· عشقت حبيب النافذة ·· ملاك الحرية السليبة ·· لكن ما هى الخاتمة ··؟ ·· وكيف تكون ؟ ·· ومتى تتحقق ؟ ·· الأمل ينغص عليها سعادتها ·· الاجابات مبهمة ·· والردود مبتورة ·· ولا يجنيان الا الحيرة ·· يجب ألا تتوقف العلاقة عند هذا الحد ·· وهل للحب حدود تعوقه ؟ ·· الانسانية فى أعماقها تصرخ محتجة ·· شبابها يتمرد عليها ·· ماذا بعد الحرية الا الانطلاق ·· وبات الصراع على أشده بين مجهولها الغامض ·· وواقعها المرير ·· ولوعة من أجل الشباب وملاك الحرية الحبيب ··

وفى هذا اليوم ضبطها الزوج متلبسة تتنسم هواء الحرية من النافذة ·· يا للهول ·· لا ريب أنها ستعرف حلاوة الحرية وتتعودها ·· دخل الشقة مزمجرا ·· مزقته الريبة اربا ·· فلقد نسى السجين الوعد ·· لم يتوان عن احكام غلق النوافذ بحيث يستحيل عليها فتحها ·· استراح لهذا التصرف ·· وعادت اليه السكينة ·· ابتسم حين اندلعت صيحاتها دفاعا عن نافذة الحرية ·· وانهالت بتساؤلها عن جنايتها ·· لـم يجب ·· بل اتسـعت ابتسامته ·· واستطرد لسان حالها :

– ليتنى عشت عانسا .. ليتنى خلقت طيرا ...

– سأرغمها أن تحس الحرية بين هذه الجدران .. فى هـذا الحصن .. لن ترى الا صورتى .. ولن تسمع الا حديثى ..

... علا صوته مقهقها ساخرا .. وجهت اليه نظـــرة حقد يفعمها اليأس .. وكم انشرح صدره .. فبعد اليأس يكون التسليم والاستسلام ..

كانت تلك الليلة وحشية .. صاحبها الســـهاد .. فى منتصفها لم تطق أشواك الفراش .. قامت وهرولت الى النافذة .. تأملها فى حنان كأم وطفلها الجريح .. جثت على ركبتيها تتأوه وتبكى بكاء مكتوما .. القمر يرسل أشعته من خلال فتحات النافذة .. القمر يسرى عنها .. أتت نسمة واهنة داعبت خدها .. لعلها أنفاس حبيبها تحوطها .. لا ريب أنه ساهر يئن مثلها .. وأنه قد علم ما حل بها وبنافذتها .. ان العصـــفور يموت فى قفص الذهب كمدا على حريته وانطلاقه فى الحياة .. جعلت تنبش فى طاقة الحرية المسدودة .. ولكن أنى للفأر أن يحطم قضبان مصيدته بأظافره الرقيقة ..

أودع الصراع النفسى وهنا فى جسدها .. لكنه لم ينبش عزيمتها .. وأبدا لم يطفىء ثغر الأمل الذى يلوح لها .

فى اليوم التالى ما أن سمعت صوت ولوج المفتاح فى الرتاج حتى قامت مثقلة بكلمتها القذيفة .. وضعتها على طرف لسانها .. قذفت بها فى وجهه دون أن تأبه بعواقبها ..

لم يمت العصفور فى قفصه الذهبى – شوقه للحرية قوى ســاعديه .. أطال مخـالبه .. وسن منقاره .. تحول الى نسر

جسور ·· دافع عن حريته دفاع النمر الجريح ·· حارب بشراسة أم تحمى وليدها ·· حطم قضبان السجن بعد أن لطختها دماؤه ·· وها هى آثاره ·· هرب العصفور الى وليفه ··

والسجان قتل الدنيا بحثا ·· وعاد ·· عاد الى عشه وحده ·· قلبه ينزف غيظا وحسرة ·· يبكى هزيمته وخيبته ·· ولم يدر أن العصفور ما سرق الا حريته ·· وأيضا لم يتعلم الفرق بين الغناء والبكاء ·· وأن الطائر يشدو حينما يكون فى أعالى الأغصان ·

مدام فوزية

بادارة شئون العاملين بالوزارة .. الموظفون والموظفـــات قابعون خلف مكاتبهم بين أكوام مكدسة من الأوراق و «الدوسيهات» .. والسعاة يروحون ويغـدون فى الطرقات .. حاملين مكاتبات أو نشرات .. أو بوستة .. أمام غرفة رئيسة قسم التسويات .. وقفت السكرتيرة تصلح من هندامها .. طرقت الباب الموارب .. فجاء صوتها جافا يأمر بالدخول .. دخلت سلوى قلقة الخطى وعلى شفتيها ابتسامة مزيفة .. فى أدب ألقت التحية .. نظرت مدام فوزية من زاويتى عينيها .. ثم عادت تنشـــغل فى أوراقها غير مكترثة .. وكانت قد لمحت مظروفا حكوميا .. تحمله سلوى فى حرص .. **اقتربت سـلوى من مكتبهـا بينما غمغمت الرئيسة : ممن هذا ؟**

ـ انه من سيادة المدير العام ..

رفعت مدام فوزية هامتها ·· تناولت المظروف ·· قلبته فى يدها وفى عينيها تساؤل ·· هـزت رأسـها مهمهمة بكلمات غير مسموعة ·· عندئذ هرولت سلوى ناحية الباب متحسسة الأرض بقدميها ·· عبثا حاولت المدام أن تحذر ما بالمظروف ··

سرت الرهبة فى كيانها :

ـ لابد انه شىء بالغ الأهمية ·

بيد مرتعشة التقطت سـكين فتح المظاريف ·· الرهبة فى قلبها طبول تدق ·· ألقت المظروف جانبا ·· فى السـماء مرت سحابة باهتة ·· تبعتها أخرى غامقة ·· لحقت بهما ثالثة قاتمة ·· فى المبنى المواجه قفزت قطة فاقعة السواد ·· نقلت بصرها بين المظـروف الملقى ·· البـاب المغلق ·· سحبت المظروف بيـد مرتجفة وقلب واجف ·· فتحته ·· التهمت السـطور بعينيهـا واحدا تلو الآخر ·· فجأة انقلبت سحنتها وامتقع لونها ·

ضغطت على فكيها تنتزع الكلمات :

ـ مستحيل ·· كيف ؟ ! ·· كيف ؟ ؟ !

« البرافان » أمامها تتأرجح بلا انتظـام ·· خبطت قدماها الأرض ·· قامت تتجول بخطوات سريعة ·· متوترة ·· الحجرة ضيقة ·· الجدران تميل نحوها ·· جرت الى النافذة تستنشق الهـواء ·· أطلت على الفنـاء الواسع ·· الموظفون يتقافزون ·· يترنحون كالسكارى ·· يتناطحون ·· ضجيجهم يصم أذنيها ·· المبانى الشاهقة تتمايل ·· ضغطت على رأسـها بكلتا يديها ·· تأوهت من أعماقها ·· أخرجت منديلها وجففت عرقها ·· أحست بالضعف يعتريها ·· زحفت قدماها حتى مقعدها ·· الصراع على أشده فى داخلها ··

وصوتها المحتج :

– رجل ! .. رجل بين سيدات وآنسات .. كيف ؟ ؟ : ازدرد وجهها وبرقت عيناها ..

خرج من فمها فحيحا :

– لو فى مقدورى أن أدق عنق المدير وأحطم رأسه الأصلع الكبير .. لم أختار رجلا .. ؟! .. لم أطلب موظفا جديدا .. القسم لا يحتاج وأنا .. أنا أدرى منه بقسمى !

أطلت فى مخيلتها صورة المدير العام بأجزاء جسمه التى تضخمت جميعا .. رن فى أذنها صراخ حاد وزعيق ورغى .. شحب لونها .

– ان المدير رجل .. رجل فظ .. قوى الشخصية .. سأناقشه بهدوء .. ولكن .. ماذا أقول له ؟ ..

قامت مترددة مبعثرة الأفكار .. خرجت من حجرتها .. مشت فى الطرقة .. تزداد نبضات قلبها كلما اقتربت من حجرة المدير .. وقفت أمام الباب المغلق .. الباب مارد استطال وكبر حجمه .. سد ضخم يتحدى ضعفها .. صخرة يستحيل نبشها .. شعرت بالوهن يتملك جسدها .. والهوان يملأ نفسها .. والأرض تميد من تحتها .. لم تملك الا أن تتراجع الى غرفتها الصغيرة .. فهى تناسب حجمها .. ولم تلتفت الى الباب السد الذى يتربع خلفه المدير العام .. لاح أمامها المظروف « الكاكى » اللون .

– لعل هذا الرجل الموظف يهم المدير شخصيا .. أو .. أو يكون من قبل الوزير رأسا .

كان هذا الخاطر بمثابة الماء البارد .. أشفى بعض غليلها .. كما عدته ذريعة لعودتها .. جلست فى غرفتها تبتلع هزيمتها المرة

وتنعى حظها .. كما دفنت ثورتها فى أعماقها .. وأكدت لنفسها أن هناك أمورا يجب أن تتقبلها بمشيئتها أو بدونها .. حتى ولو كانت غصة .. فعليها أن تزدردها ..

فشلت رئيسة القسم أن تواصل عملها .. شعرت بالاختناق يضغط على عنقها وصدرها .. يا لسوء طالع هذا اليوم .. لو ركنت فى البيت .. ولكن الى متى ؟ .. نهضت وخرجت من حجـــرتها جاهدة أن تكون رابطة الجأش .. وكانت قد برقت فى ذهنها فكرة ثعلبية .. واصلت سيرها بحيوية لا تتفق وموقفها .. وقفت على باب قسمها .. الموظفات وأحاديثهم التى لا تنقطع عن أخبـــار « المـودة » ووسائل الاحتفاظ بالأزواج .. وأحابيل الشغالات ومقالب المخدمين .. بعضهن انهمكن فى أعمال الخيط و « التريكو » حتى لا يضيعن الوقت فى مثل هذه الأحاديث .. والباقون اندمجن فى قراءة المجلات تحاشيا للملل .. خطت مدام فوزية بخطواتها الوئيدة ومن منهن لا تعرف وقع هذه الخطوات .. كان فزعهن .. تركت كل ما بيدها .. سكتن عن الأحاديث المطولة المهلهلة وانبرت الأصابع تعبث فى الدفاتر وتفتش عن الأقلام .. عيونهن المذعورة تسترق النظر من زواياها الى وجه الرئيسة .. التفتت الرئيسة ناحية الباب .. رجعت تغلقه بنفسها .. وهنا توجس الجميع شرا محققا .. فلن يسلمن من عبارات التهكم والتأنيب .. اندهشن جميعـا حين ابتسمت .. عيناها تجـوس فى ملامحهن من خلف عويناتها لعلها تستشف كيفية وقع حديثها .. أو كيفية استقبالهن للموظف الجديد .. جلست على مقدمة أحـــد المكاتب .. تصرف غريب .. وقفن جميعا احتراما ولم يخف على بعضهن ما ارتسمت على سحنتها من خطوط الأسى .. اجتمعن حولها واحدة بعد الأخرى .. ضغطت على نظـارتها خيفـة أن تنحرف فيفتضـح ما يعتلج فى صدرها .. حركت لسانها فى فمها .. **خرج صوتها غير مألوف :**

ـ أما عرفتن الخبر الجديد ؟

ركزن عيونهن على شـــفتيها ·· طالت فترة الصمت ··

تشجعت احداهن قائلة :

ـ لعله خبر سعيد ·

ـ لا ·· لا أعتقد ··

سقطت هاتان الكلمتان من فمها وعاد الصمت يرمى شباكه·· الصمت شيء واحد ·· الشكوك كثيرة متباينة ·

تدحرجت الكلمات من بين شفتيها ثقيلة :

ـ انتهى عهد الحرية يا صديقاتى ·

صديقاتى ؟! تعبير جديد أودع ريبة فى وجوه الموظفـــات

وأضافت :

ـ من الغد عليكن بارتداء ملابس أكثر احتشام ووقار ··

التبس الأمر عليهن ·· لم تجرؤ احداهن على الاستفسار ·· كل تعتقد أن ملابسها غاية فى الاحتشام ··

ثم أردفت مدام فوزية :

ـ وليكن حديثكن فى محيط العمل ·· العمل فقط ·

كلام غامض أثار دهشتهن·· لم تطق احداهن الصبر فاندفعت قائلة :

ـ ما الخبر يا مدام ؟ !

سكتت مدام فوزية عن قصد ·· ثم ألقت قنبلتها :

ـ موظف جديد ·

قالت واحدة متلعثمة :

ـ تقصدين موظفة جديدة يا مدام ..

سرت الرئيسة من طريقة عرضها لنقطة البداية .. ثم اصطنعت الانفعال وقالت ضاغطة على الحروف :

ـ كلامى واضح .. أقول موظف جديد .. وليست موظفة .. يعنى رجل ..

ثم أضافت فى حزن مقصود :

ـ سيعمل بينكن رجل .. تصوروا ؟!

تبدلت الملامح واحتدت الانفعالات .. تجددت الأشواق وارتعشت الأطراف .. لمعت عيون وتعلقت أخرى بأحبال الأمل .. تخضبت خدود بحمرة قانية .. ومن بين هذه الانفعالات .. التقى زوجان من العيون ..

كل يقول للآخر :

ـ هذا دورى ..

سرحن بخيالهن فى ذلك الموظف.. أهو أعزب.. أم متزوج ؟ .. شاب .. أم عجوز جارت على عمره السنين .. طويل أم قصير .. نحيف أم ربعة .. أسمر أم أشقر .. ومتى يصل .. غدا أو بعد غد .. أول الشهر .. متى .. متى ؟ ؟

الأجساد فى الحجرة الكبيرة .. الخيالات تحلق بعيدا . . على مضض انتظرت الرئيسة لحظة الثورة .. طال الانتظار .. كانت تتوقع أن يزمجرن محتجين أن يعمل بينهن رجل .. وبهذا تستطيع أن تتحدث عنهن فيتحقق أملها فى ابعاد ذلك الرجل عن مملكتها النسائية .. ثار الدم فى عروقها .. كادت أن تفقد رشدها

وتقذعهن بالسباب ·· **ولكنها عادت تقذف بسهمها الأخير فى لوعة:**

ـ ما رأيكن ؟

لم تجب واحدة ·· كأنهن نيام ·· أو أنها توجه سؤالها الى نفسها ·· وكانت صدمتها حين تحطمت فكرتها ·· شعرت بالتمزق ·· خنقت عبرة كادت أن تنزلق من مآقيها ·· انسلخت تاركة الموظفات يرغين ولسان حالها **يقول متمنيا :**

ـ لو كنت رجلا !

فى الصباح جاء الموظف الجديد تتقدمه الرئيسة لشىء فى نفسها ·· وقد احتشدت فى صدرها أمر الصراعات ·· دخلا القسم ·· أخذت الدهشة الموظف حين وجد نفسه فى مملكة النساء وعلى رأسهن ملكة ·· تسابقت العيون تتفحصه ·· كان شابا أسمر اللون طويل القامة ممشوقا ·· تجسدت الرجولة فى ملامحه ونظراته ··وابتسامته الرزينة ·· ورنات صوته الخشن حين ألقى بالتحية ·· لم تحظ مدام فوزية بأدنى اهتمام ·· نسى الجميع وجودها·· استطاعت أن تقرأ تعبيراتهن بوضوح·· وأيضا آراءهن وأحاسيسهن ·· شعرت بالغربة فى قسمها التى قضت بين مكاتبه ووظائفه أحلى أيام عمرها ·· كم زاد حقدها على الموظف ·· وبالذات حين رأته يتحدث بلباقة استحوذت على انتباههن ·· كأنه بطل مسرحية أمام جمهور عاشق ·· ترجمت كل هذا اغاظة لها ·· أو أنها وقيعة دبرت لها ·· تأكدت أنه ممثل بارع استطاع أن يتقن دوره ·· وغدا سيسقط القناع ويكتشف أمره ·· ساعتها تسدد ضربتها وتستعيد كرامتها ·· دارت رأسها ·· وانتشر النمل فى جسدها واصفرت الدنيا فى عينيها ·· **وكم رغبت أن تصرخ زاعقة :**

ـ أنسيتم وجودى ·· اننى رئيستكم جميعا ·· ورئيسة هذا الرجل ·· هذا الضيف الثقيل ··

وكم شعرت بالغيظ حين رأته فى اللحظات الأولى يسأل عن مكتبه وماهية عمله ·· وسرعان ما اندمج يباشره ···

انسلت مدام فوزية قبل أن تفقد ما تبقى من أعصـــابها وتتصرف بما لا يليق ومكانتها ·

لم تمض أيام كثيرة حتى أنجز الموظف كل عمله ومتعلقاته ·· ثم انبرى يساعد زميلاته بسعادة وتواضع وبدا القسم خلية نحل·· دائبة العمل والنشاط ·· ولم ينقض أسبوعان حتى أنجزت كل الأعمـال المتراكمة ·· واختفت « الدوسـيهات » من على مكاتب الموظفـــات ·

طيلة هذه الأيام ورئيسة القسم لا تفارق مكتبها ·· تكبت فى صدرها ثورة عارمة لا تستطيع تفجيرها ·· فالثـــورة تعوزها ارادة حديدية ·· وعزم أكيد ·· لم تزر قسمها مرة واحدة ·· وكل يوم يمر يضيف ألما الى ألم ·· ولوعة الى لوعة ·· وكذا يحطم جانبا كبيرا من شخصيتها ومعنوياتها ·

فى هذا اليـــوم فاضت آلامها وعيل صبرها ·· لم تحتمل صورة الموظف التى علقت بمخيلتها ·· بابتسامته الواثقة ورجولته ·· رثت لشخصيتها التى بليت ·· واحترقت ·· وللمرة الثانية تمنت من أعماقها لو خلقها الله رجلا ·· غشى وجهها عرق بارد ·· ماجت الأشياء أمامها ·· الضحكات الساخرة تقرقع فى أذنيها ·· توقفت عيناها على السحب المتراكمة ·· اسودت الدنيا من حولها ·· شدت الدرج بعصبية ·· أخرجت ورقة كبيرة ·· واسترسلت تسطر استقالتها ولسان حالها يردد : اما أنا ·· أو هذا الموظف ··

الرجل .. الدموع تسـح من عينيها .. أتى الى سمعها طرقات خفيفة .. ما زالت أصـابعها المتشنجة تكتب وتكتب .. علت الطرقات واستمرت فى الحاح .. توقفت عن الكتابة . .انتابتها حـيرة .. فهل تأمر الطارق بأن يغرب عن وجهها .. أو تدخـل ورقتها لتعرف ما وراءه .. طالت فترة التفكير العقيم .. والطارق مصر لعله أراد أن ينقذها من حيرتها .. ارتفع صـوتها تأمره بالانتظار .. مسحت دموعهـا وأدخلت الورقة فى درج مكتبها ثـم أمرته بالدخول .

دخلت سلوى .. أيضا تحمل مظروفا أصفر .. انقلبت الدنيا أمام مدام فوزية .. واشـتد وجيب قلبها وتلاحقت أنفاسـها .. أوشكت أن تطردها وتعفيها من هذا العمل .. وانبعث صياحها :

ـ مظاريف كل يوم .. كل يوم .. ممن هذا أيضا ؟

ثبتت سلوى قدميها خوفا أن ينطلقا هاربين رغما عنها .. تذكرت أنها لم تقدم اليها رسالة أخرى منذ تعيين الموظف الجديد .. **ثم همست في رهبة :**

ـ انه من .. وكيل الوزارة .

وقع قلب الرئيسة .. استقرت نظراتها المذعورة على ثوب سـلوى تتأمـل خطوطه المتشابكة .. اغتصبت ابتسامة ثم قالت فى ضعف :

ـ اجلسى يا ابنتى ..

عجبت سلوى من هذا التغيير المفاجىء .. واشتد عجبها حين سمعتها تقول :

ـ اعذرينى يا سلوى .. فان برأسى دوار شديد .. أرنى هذا الخطاب .

ناولتها سلوى الخطاب وما زالت الدهشة فى عينيها الفاغرتين .. أمسكت مدام فوزية المظروف .. شعرت بغشيان وشىء مجهول يسلبها ارادتها .. **ثم أضافت فى اعياء :**

ـ أشكرك يا بنتى .

هرولت سلوى من غرفة رئيستها لا تستطيع أن تستوعب ما حدث .. ودعت مدام فوزية تتفرس فى الخطاب وبودها ألا تفتحه قبل أن تنتهى من تسطير الاستقالة .. الا أنها عدلت عن ذلك خشية أن يكون بالمظروف أمرا لا يحتمل التأجيل .. وضعت راحتها على صدرها .. تماسكت ثم فتحت المظروف .. ويا للعجب ! .. لقد تبدلت سحنتها وانفرجت أساريرها بعد قراءة سطر واحد .. ابتسمت .. قامت تجرى هنا وهناك والرسالة فى يدها .. وقفت تكمل سطورها الباقية .. جرت الى النافذة .. الموظفون فى الفناء لا يترنحون كالسكارى .. تراهم فرقة موسيقية تعزف لحن السعادة .. السماء صافية .. كل الدنيا تضحك .. وتهلل .. وتغنى ..

ـ خطاب شكر من وكيل الوزارة .. ومكافأة أيضا ..

تأملت وجهها فى مرآة حقيبتها .. ولا شعرة بيضاء فى رأسها .. اختفت تجاعيد وجهها .. ترى وجه الموظف الجديد .. ابتسامته تزداد وداعة .. **خرج صوتها هامسا حالما :**

ـ كل شىء يتغير .

جرت الى مكتبها لتضع الخطاب السعيد .. ملأت عينيها برؤيته .. ما زالت تنظر اليه فى شوق كأنه حبيب عاد .. وسام تمنت لو تعلقه على صدرها وتطوف به طرقات الوزارة ومكاتبها .. قبل أن تغلق الدرج لمحت الاستقالة .. اختطفتها وأسرعت تمزقها

بين دموعها ·· أغلقت الدرج على مبعث فرحتها ·· لم تطق الصبر ·· انطلقت من حجرتها ·· مشت فى الطرقة ·· بل حلقت ·· دخلت قسمها تعانق الموظفات بعينيها وروحها ·· أمـام الرجـل وقفت ·· الابتسامة المشرقة ما زالت تضىء وجهه·· نفس الابتسامة ·· نفس الرجـولة ·· **طالت النظـرة بينهما ·· ولسان حالها** يؤكد :

ـ هذا هو الانسان ·

تمنت لو تطبع قبلة على جبهته ·· الابتسامات زهور تطير فى جنبات الحجرة ·· فعلا كل شىء تغير منذ قدوم الموظف الجديد ·· الرجـــل ·

المعذبون

« نظرة الى ماض قريب »

عند ناصية الشارع الكبير ·· أفرغ ما بصفيحته على الكوم ·· وما الكوم الا كوم « زبالة » وما هـــو الا « زبال » يجمع ما تتمخضه الشقق والمنازل من نفايات ومهملات ·· وبقايا أشياء ·· لقاء أجر زهيد ·

وضع الصفيحة العتيقة على الأرض ·· جعل يتأملها بينما يلتقط أنفاســـه ·· وحبات العرق تنزلق على جبينه ··· افتر ثغره عن ابتسامة شاحبة ·· كم وفية هذه الصفيحة ! ·· لقد صـــاحبته حقبة طويلة من سنين عمره الشقية ·· انها تشبه زوجته ·· فكلاهما عاشره ثلثي حياته ·· مسكينة زوجته ·· مسكينة أيضا تلك الصفيحة فقد كساها الزمن بالصـــدأ ·· الا أنها مصدر رزقه ·

أفاق من شروده .. نظر تجاه الشمس .. ما زالت ناحية المشرق .. لم يزل فى النهـــار ساعات طويلة .. مر أمامه واحد من أبناء البشر .. أخاله ينظر الى صـفيحته مزدريا .. انزعج « الزبال » .

ـ لو اعترضت صفيحتى هذا الآدمى لسحقها بقدمه ... لداس على زوجتى ووطأ خبزنا .. لا ريب انه ظالم قاس .. فكيف يدوس طعامنا .. كيف ؟!

زوجته هناك فى مســكنه الحجرة .. أو فى العـراء حين يتأخر فى دفع قيمة الايجار .. أمضت أيامها مع كل اشراقـة تودعه .. ومع أول خيوط الليل تستقبله فى شوق .. الصـغار من حولها والجوع قد فغر أفواههم . تتراءى لعيونهم « لفـة ورق » فى يد عائلهم .. تحوى طعاما هو الغداء .. وهو العشاء ..

بعين الرضا نظر الى كومه الذى يرتفع وتتسع رقعته .. تحسس جيبه الذى انتفخ وثقل بالقروش .. كان الجيب فوق قلبه .. فكلما رنت القروش انبعث صداها فى أعماقه .. أشـد روعة من احدى « سيمفونيات بتهوفن » .

رفع يده المعروقة .. بســبابته مسح عرق جبينه ... سقطت قطرة فى فمه فأحس بملوحتها ومرارتها فى حلقه ... جلس بجانب الصفيحة والكوم .. بالضـبط كما يجلس بين أسرته .. جاب الشـارع بعينيه .. ما زال هناك الكثير من المنازل لم يخلصها من نفاياها .. انفرجت بعض أساريره .. فى حذر وضع راحته على جيبه كأنما يضعها على فرخ خرج توا من فقسه .. تلفت حوله فى حيطة .. أخرج ما بجيبه بينما يتلفت .. فشل أن يبتلع لعابه .. جعل يعد القروش ويبتسم لرنينها

.. لم يكمل عدها حتى لا تفقد بركتها .. هكذا حدثته نفسه .. أعادها الى جيبه .. فجأة .. انكمشت أساريره .. سرح بفكره قليلا .. لو مال أو انحنى لانزلق بعض القروش .. وتكون طامته .. أخرج قروشه فى حذر شديد .. فكر قليلا .. نزع رقعة من على كتفه فبرزت عظمة حادة .. وضـــع القروش فى الرقعة .. لفها جيدا .. توقف برهة .. لو .. لو يطير الى زوجته فيطلعها على رزق هذا اليوم .. كم ستكون فرحتها ! .. طـرد هذه الفكرة من رأسه رفقا بزوجته من الذهول .

ـ بارك الله فى سكان هذا الشارع الكرام .

نقل بصره بين اليسار واليمين .. شخص الى أعلى ... دار من حوله بعينيه .. ليس هناك من يرقبه .. أو حتى يشعر بوجوده .. انحنى فوق كوم صغير بجانب الكبير .. دس كنزه .. أخفاه .. حينئذ تنفس الصعداء .. أخذ صفيحته والفرحـة متألقة فى عينيه .. **مشى حثيثا يحدث نفسه :**

ـ ســـأودع الفرحة فى قلب زوجتى .. وأجلب لأولادى طعاما كثيرا .. حتما ستمتلىء معداتهم .. وسأشترى لهم حلوى .. نعم حلوى .. يأكلها أولادى وتتذوقها زوجتى .. وأقرأ السعادة على وجوههم ..

ـ ان لم يكن اليوم عيد .. فأى يوم يكون ؟ .. أتى العيد الماضى على كل الناس .. طرق كل البيوت ونسى بيتنا .. تخطاه فى غفلة .. امتلأت قلوب الأولاد سعادة الا أولادى .. يومهـا أوصدت الباب حتى لا يعلم الصغار ما تصنعه بنا الأيام .

من أحد المنازل خرج وقد تلاشت بعض غضون وجهه .. لو نظر الى مرآة لكانت دهشته حين يلمح سعادته .. فتح راحة

يده ·· اختلس اليها نظرة ·· اتسعت ابتسامته فأضاءت وجهه ·· عشرة قروش !! ·

ـ منذ متى لم تمسك يدى مثل هذه القطعة ؟ ·· لن ·· لن أصرف منها مليما واحدا ·· بل سأضعها فى البيت وديعة تجلب لنا الأرزاق ·· بارك الله فيك يا زوجتى ·· كل هذا بركة دعائك ·· ولكن ·· أين نضع هذه القطعة الثمينة ؟ ·· أين ؟؟ ·· لا شك أن زوجتى ستحفظها فى مكان أمين فتكون عونا فى وقت الشدة ·

وصل الى كوم « الزبالة » نقل بصره بين الكوم الصغير والكبير ·· **ثم استقر على الكوم الكبير ولسان حاله يقول :**

ـ انه الأصغر ·· لكنه أكبر قيمة منك ·· لا تتباهى بضخامتك ·· فانت أجوف كالطبلة ·· أما هذا الصغير الحبيب ففى أحشائه كنزى الثمين ·

عاد يتلفت من حوله ·· انحنى على الكوم ·· تذكر حين يضم ابنه الصغير ويقبل خديه ·· دس يده ·· أخرج كنزه ·· بسرعة فتح الرقعة ·· وبسرعة وضع القمر وسط النجوم ··· نظر الى القروش كأنما يوصيهم به ·· وبسرعة أيضا أعاد الصرة الى أعماق الصغير ·· هلل وجهه ·· خاف أن يلمح فرحته أحد فيكتشف أمره ويسرق كنزه ·· فتمثل العبوس كما كان ··· وكما عهده الجميع ·

من جديد ·· عاد يضرب الأرض بقدميه المفلطحتين ··· أكثر حيوية من ذى قبل ·· :

ـ لم يبق غير بيتين ·· بعدها سأعود عدوا ·

جد فى سيره ·· صعد حتى الدور العلوى ·· السابع ·· قعد يستريح قليلا ·· لكنه قام كالملسوع يفرغ « زبالة » الناس فى صفيحته ··· وهناك أمام كوم « الزبالة » فى الشارع الكبير ·· وقف أحدهم يبتسم ··· فالكوم كبير على غير العادة ··· لا ريب أنه يذخر بما يبغى ·· وانبرى يبحث ويفتش ·· ويجمع الخرق والعظام ·· كم أراحه هذا الكوم من عنـــاء بحث طويل وسير كثير ·· جذب قطعة عظم ·· نظر فيها مليا ·· بها قطعة لحم ·· بقايا دجاجة ! ـ اتسعت ابتسامته ·· اشتم رائحتهـــا ·· تلفت حوله ·· ليس الا طفل يرقبه ·· لم يأبه به ·· نظف قطعة اللحم باحدى الخرق ·· وانبرى يقضم منها بشهية ·· أبعدها قليلا ليبحث فى ذاكرته عن آخر مرة ذاق فيها طعم الدجاج ·· لم تسعفه ذاكرته ·· قذف بقطعة العظم النظيفة من اللحم فى عربته الصغيرة المجاورة ·· لعق شفتيه ·· وطفق يفتش مرة أخرى لعله يعثر على قطعة أخرى تسكن آلام معدته بطعام نادر ·

جمع كل ما بالكوم من خرق وعظم ·· رفع ظهره متأوهـــا ·· نظر حول الكوم ·· لمح الكوم الصـــغير فحصه بعينيه ·· طوح رأسه غير مبال ·· خطا ناحية عربته ·· أمسك ذراعيهـا ·· دفعها أمامه قليلا ·· الا أنه توقف ثانيـة ·· عاد ناحيـــة الكوم الصغير ·· جعل يدفع محتوياته بقدمه ·· نفش الكوم فبـــانت الصرة ·· انحنى ليلتقطها ·· يفتح طياتها بينما كان حاله يقول :

ـ ولعلها تحوى قطعة من الحلوى فتستكمل الوجبـة ·· أو قطعة سكر فأهدى معدتى كوبا من الشـاى ·· فوجىء بالقروش تتلألأ ·· ترن فى أذنيه بنغمة عذبة ·· أغلق عينيه ثم فتحهمـــا

.. تراقصت جفونه .. أدناها لعينيه .. التقط القمر ليستمتع برؤيته .. اشتم رائحته .. انها لتشبه رائحة الدجاج المشوى .. أعاده الى مكانه .. لف الرقعة جيدا .. دسها فى جيبه فسكنت نفسه عن الصراخ .. وعاد يدفع عربته فى خفة وانطلاق .. وصل الى نهاية الشارع حينما كان « الزبال » خارجا من ذلك المنزل الذى انهكته ادواره .. يمعن فى سره تلك المرأة الثرثارة التى حكت له كلاما لم يع منه حرفا واحدا ..

مشى يترنح ناحية الكوم .. دنا منه فدق قلبه .. نظر فى جيبه .. لم ترن القروش القليلة . تحقق فى الكوم وقد تبعثرت أشلاؤه بيد مجنونة .. أسرع الى ولده الصغير .. الصريع .. وجهه مدفون فى الرغام وأنينه يملأ الآفاق .. لم يجد صرنه .

عبثا جعل يبحث .. يدقق .. يتحقق .. ثم يعيد البحث .. شعر بسحابة قاتمة تفترش وتتسع أمام عينيه حتى شملت الكون .. ثلجت أطرافه وارتخت عضلاته .. ثم هوى على مقعدته محطم النفس .. وقد برزت فى وجهه أقوى معانى اليأس .. وجدت الدموع سبيلا الى عينيه .. اللون الأصفر يغطى كل شىء .. أطلت فى مخيلته وجوه أولاده .. وزوجته .. كيف يعود اليهم خاوى الجيب .. كسير النفس والخاطر ..

ـ من سرق الكنز ؟ لو سحقنى ما بكيت .. وما تألمت .. انه يسحق أولادى .

ماذا يصنع ؟ .. وكيف .. وفيم يفكر ؟ .. جعل ينظر الى الشارع فى لوعة .. تنبه لوجود صبى وقف يتأمله فى عجب .. قرأ بؤسه على وجه الصبى .. تحامل على نفسه .. استطاع أن يقف .. الى أين يقصد .. أيعود الى بيته ؟ .. تذكر شيئا

.. جر رجليه .. قبع بين الصفيحة وكوم « الزبالة » القتيل .. الصفيحة تئن .. لو تعلم الزوجة لأنت .. ولأذرفت عيناها دماء .

انبرى يجمع علب السجائر الفارغة كما أوصاه ولده الصغير .. جمع كثيرا .. كثيرا .. تمنى أن يستمر حتى الموت .. وقع بصره على ورقة مطوية .. تناولها فى تراخ .. فتحها فى ملل .. وقع طرفه على ورقة نقدية حمراء .

ـ يا الهى ! .. كم .. كم قيمة هذه الورقة ؟! ـ لعلها خمسة .. أو .. أو عشرة جنيهات .

أمسكها باهمال .. قلبها على وجهها .. لو كان قد ذهب الى المدرسة وتعلم القراءة .. نسى الكنز الذى كافح من أجله طيلة يومه .. طوى الورقة كما كانت عليه .. ومن هنا بدأت متاعبه .. وقف ينظر الى لا شىء وقد لمع جبينه بعرق بارد ...

يقدح ذهنه :

ـ لم تكون هذه الورقة ؟ .. من صاحبها ؟ .. من .. من ؟

لا جواب .. فمنازل الشارع كثيرة .. وشقق المنازل عديدة .. هى لمن يا ترى ؟؟ .. أولاده جوعى .. وزوجته .. وهو .. بطنه خالية .. خاوية .. ظل يتخيل ويفكر .. برقت عيناه .. هز رأسه جعل يجر ساقيه جرا .. لو زحف على بطنه لكان أسرع .. فكره ما زال يعمل .. أرسلت عيناه نظرة شيطانية شامتة .. واصل سيره نحو بيته .. وقف فجأة .. عاد تجاه الكوم .. وقف ثانية .. أخذ ينظر فى وجوه المارة ..

ثم عاد يهرول قاصدا بيته :

– ان هذه الورقة لتكفينا شهورا .. اصطدم بأحد المارة .

– ماذا أقول لزوجتى .. ماذا أقول لها ؟؟

توقف .. زحف اليأس الى قلبه .. وتسرب الى صفحة وجهه .

– لعلها عطية الله عوضا عما فقدت .. و .. وأنى تمطر السماء أوراقا حمراء ؟! .. وكيف أعود الى عملى ؟

ولو سألنى أحدهم عن الورقة فماذا أقول ؟

تذكر أولاده فسالت العبرات الحبيسة على خديه .. ارتعشت شفته السفلى .

– أو يكون صاحبها أشد احتياجا منى .

كاد أن يضحك .. واستطرد فى يأس شديد .

– لعل هناك من هو أشد تعاسة منى .. والكثيرون يبدون عكس حقيقتهم .. ومن ذا الذى يعلم بالسرائر .. البيوت أسرار

حث خطاه قاصدا الشارع .. طرق باب أول شقة فى أول منزل .. تخيل بأنه أمام مسكنه .. وأن زوجته ستفتح له .. فتح الباب .. كاد أن يسأل المرأة عن أولاده .. هل غشى النوم جفونهم .. أم أنهم ينتظرون الطعام .. يتنبه على استفسار المرأة عن سبب عودته .. فأسرع قائلا :

– هل .. هل ضاع منكم نقودا ؟

غابت المرأة بالداخل لحظات ثم عادت تهز رأسها نافية .. بينما ترمقه بنظرة اعجاب .. خرج الرجل ليطرق أبواب الشقق فى كل منازل الشارع الكبير .. لم يعثر على صاحب الورقة ..

اشتد تعبه ·· جلس على الطوار يتأمل الورقة ·· وكانت الشمس تنحدر ناحيـة الغروب ·· أشار الى أحـد الصبية ·· فذهب اليه ·· أراه الورقة بحرص متسائلا عن قيمتهـا ·· أجاب الولد بدهشة وتفاخر : ـ انها عشرة جنيهات ·

ـ عشرة جنيهات !! ·· يا لها من ثروة ! ·· لو لم أجد صاحبها فتكون ليلة سوداء ·· لن ·· لن أتزحزح قدما عن هذا الشارع حتى أعثر على صاحب الورقة ·· لقد تأخرت ·· ولكن ما فائدة عودتى ·· ما فائدتى ؟ من غير مال أدفع به غائلة الجوع عن أولادى ·· وزوجتى ·

وبينما هو غارق فى حديثه المؤلم الى نفسه ·· جاءه نفس الصبى يلهث ويستحثه لمصاحبته الى منزلهم ·· كطلب والده ·

قام الرجل يهرول خلف الولد ·· بينما كان الأخير لايكف عن حثه على الاسراع ·· وقف الرجل حيث وقف الصبى بجانب والديه أمام باب الشقة ·· فقال الأب فى اندفاع ولهفة :

ـ انى صاحب الورقة الحمراء ·

لمعت عينا « الزبال » بالفرحة من بين خطوط البؤس التى غشيت وجهه والتفت حول عنقه ·· عندما أضاف الأب :

ـ انها عشرة جنيهات ··

التفت « الزبال » الى الصبى مرتابا ·· حين استطرد الأب يصف الورقة ومـــا كانت عليه ·· عندئذ قدم له الورقة ·· فاختطفها الأب شـــاكرا أمانته ·· ولم ينتظر « الزبال » ·· ·· واستدار منكس الرأس ·

ـ أعطانى الرجل الكثير ·· الشكر لقاء أمانتى ·· ان هذا ليكفينى ويزيد ·· لكن لا يعتق معداتنا من جوع على جوع ··· و ··· وما ذنب الرجل ؟

مشى مهلهل النفس بينما جاء الى سمعه صوت ارتطام باب الشقة ·· جعل يتخيلهم يأكلون فى هناء ·· تذكر ابنه الصغير فنظر الى صفيحته ·· فاصطدمت بعينيه علب السجائر الفارغة ·· واصل خطواته الزاحفة ·· المترددة ·· وكان الليل قد صبغ الدنيا بأديمه ·· طرق « الزبال » باب مسكنه ·· فتحت الزوجة بشوق ولهفة ·· لمح فى وجهها دلائل الخوف عندما قالت بصوت واهن :

ـ لقد تأخرت اليوم ··

استدارت دون أن تسمع جوابه ·· ذهبت حيث ينام أولادها لتوقظهم ·· استوقفتها كلماته التى تقطر يأسا وكمدا :

ـ لا توقظى أحدا ··

كانت الكلمات كالسهام مزقت قلب الأم ·· اندفعت نحوه ·· تفرست فى وجهه مستغربة ·· رات دموعه ·· لم تنظر الى الصفيحة فقد اعتادت عليها ·· كأنما لا تصرفه بدونها ·· انتابتهما فترة صمت قطعها صوت الصغير : ـ ألم تأت بالطعام يا أبى ·· اننى جوعان ·

تدفقت الدموع من عينى الأب ·· وقال فى ألم شديد :

ـ لقد أحضرت لك أوراقا كثيرة ·

رفع الصغير صوته معاتبا :

ـ أقول لك اننى جوعان ·· لا أريد الأوراق ·· بل أريد الطعام ·

لم يجب الأب ·· فماذا يقول ؟ ·· كانت دموعه أفصح من كل لسان ·· وأروع تعبير ·

على طول الدرب ·· فى الأزقة والحارات ·· فى قلب مجتمعنا نفوس تتعذب ·· وقلوب تتمزق ·· وعيون لا تهدأ من الدموع ·

هذا الصبى

ودع الزوجان عيادة الطبيب ·· الزوجة تحمل وليدهـا تحاول جاهـدة أن تهدئ من صراخه ·· عرج الزوج على أول صيدلية ·· انتظرته الزوجة بينما استمرت تهدهد الصغير ··· لم يتأخر الزوج ·· عاد حاملا « لفة » الدواء فى يده ·· تعلوه بشاشة كأنما ابتاع حياة ابنه ·· بادلته الزوجة ابتسـامة ·· التفتت الى طفلها متفائلة ·· ظلت تتأمل وجهه كأنما تبثه نبأ شفائه ·· مشيا فى الطريق الى محطة القطار ·· يستعيدان كلام الطبيب ويثنيان على انسانيته ومهارته ·· نظر الزوج الى سـاعة يده فتأوه قائلا :

ـ سيفوتنا القطار ·· هيا أسرعى ·

جعلت الزوجة تهرول ويداها تحوطان الوليد فى حـرص شديد ·· والزوج ما زال يحثها ·· لكنها توقفت ·· وما زال الصغير يعلو ويهبط تبعا لأنفاسها :

ـ لقد تعبت ·

ـ القطار فى المحطة ·· ولم يبق غير بضع خطوات ··· واحذرى أن يسقط الطفل ·

خفت صوت الزوج حين انبعث صفير القطار ·· كما هدأت خطواته ثم وقف ينظر الى الركاب من النوافذ المتسابقة ·· ابتلع غصته ·· واستمر يحملق فى القطار حتى نأى ·· وما لبث أن اختفى بين موجات الظلام ·· استدار ناحية زوجته التى طأطأت رأسها ·· كاد أن يؤنبها لولا حركة الصغير ·· وفضل أن يحدث نفسه :

ـ لو كنت وحدى لما فاتنى القطار ·

ثم وجه حديثه لزوجته وقد عقد ما بين حاجبيه :

ـ علينا بالانتظار ·· ساعة كاملة ·

شهقت الزوجة فى جزع :

ـ ساعة ؟ ·· ساعة فى هذا البرد الشديد ·· والولد محموم ·· كما يجب أن نسقيه الدواء والا قضت عليه الحمى ·

صمت الزوج يسترجع كلام زوجته ·· توقف عند جملتها الأخيرة ·· ثم هز رأسه حائرا ·· وهتفت فى حيرة وقلق :

ـ وماذا أصنع ؟! ··

ثم أضاف : ـ نستأجر تاكسى ··

ـ تاكسى !! ·· أجر طبيب ·· وثمن دواء ·· وتاكسى ؟ ··

ـ لا بديل عن ذلك ·

دار الحوار بين الزوجين على رصيف المحطة ·· بينما ساقتهما قدماهما شطر الميدان المجاور ·· وقفت الأسرة الصغيرة ·· الزوجة تربت على طفلها الذى بدأ يتذمر ·· لعله يشاركهما

أسفها على فوات القطـار ·· الزوج زائغ النظـرات بين عـربات الأجـرة ·· على الطوار المقـابل كانت هنـاك عينان تتنقلان بين الزوج تارة ·· والزوجة تارة أخرى ·· وفجأة لمعت العينان بالفرحة ·· قفز الصبى صاحب العينين ·· تثنى وتلوى مخترقا طريقه بين العربات المزمجرة المسرعة ·· وقف أمام الزوج الحائر يلهث ·· تزين وجهه بسمة تفاؤل ·· تعجب الرجل حين رأى الصبى يبتسـم له كأنه يعرفه ·· فتش فى ذاكرته لعله يدرك سبب هـذه الابتسامة ·· طاش صواب الأب حين سمع بكاء ابنه ·· **قطع الصبى انفعالاته قائلا فى ثقة :**

ـ استرح أنت يا سعادة البك ·· سأقوم آنا بهذه المهمة ·· باذن الله سـوف أسعفكم بعربة ·· نظر الرجل الى الصبى مقارنا بين حجمه وكلامه ·· هم بأن ينهره ويعفيه من عرضه فانه فى موقف لا يحتمل هزل الصبية ·· لكنه لمح بريقا يشع من عينى الصبى ·· لم يملك الا أن يهز رأسه موافقا ·· عندئذ **قال الصبى فى سرور وعجلة :**

ـ استرح اذن ·· ·· ولتسـترح الست هانم ·· دقائق وتأتى عربة ·· التساهيل على الله ·

لم تمض دقائق واشتدت الرياح ايذانا ببدء عاصفة ·· بكاء الطفل المتقطع يهز وجدان الأب ·· وليس فى مقدوره الا أن ينقل بصره بين الطفل العصبى ·· وأمه المشرفة على البكاء ·· ثم يعود ليتابع الصبى نافذ الصبر متقلص الأسارير ·· الصبى دائب الحركة يجرى هنا وهناك ·· يوقف هذه العربة ·· ويتفادى تلك ·· ويحدث ذلك السائق ·· **ويسأل الزوج نفسه :**

ـ لم يجرى هذا الصبى هكذا ؟! .. لم يعرض حياته للخطر .. لقد لعب أكثر من اللازم .. لا ريب أن هذه اللعبه تجلب الى قلبه السعادة .. أو تكون شقاوة صبية .

الصبى ما زال يعمل فى نشاط ولا تفتر عزيمته .. والطفل يبكى فى اصرار وأيضا لا تفتر عزيمته .. كل منهما .. يتصرف تبعا لاحساسه..والزوج يشتد قلقه..والزوجة تنكمش على طفلها تحميه من الصقيع .. من بين كل هذه الصراعات جاء الصبى مطمئنا :

ـ لا تقلق يا بك .. لعل الله أن يسهل بعربة شاغرة .

رأى الزوج قطرات العرق تتصبب من جبين الصبى رغم شدة البرد .. وما زال الأمل يلوح فى عينيه رغم ملامح اليأس التى تسربت الى وجهه .. قالت الزوجة بين انتفاضاتها :

ـ لتنقده أجره .. لقد تعب كثيرا .. فما ذنبه ؟

نظر الزوج فى ساعته موافقا ثم أضاف :

ـ بلى .. كما أن موعد القطار التالى قد اقترب .

انكمشت أسارير الصبى حين رأى الزوج يضع أصابعه فى جيبه الصغير .. واندفع صائحا :

ـ لا يا سعادة البك .. مستحيل ـ كلها دقائق وتأتى عربة باذن الله .

سكت الطفل لعله كان ينصت لحديث الصبى .. أو أنه تأثر بجلال الموقف .. أخرج الزوج أصابعه من جيبه .. التوى الصبى وجرى متقافزا وعيناه على الطريق الأسود .. عندئذ قالت الزوجة فى تأثر شديد :

ـ لا خير من الانتظار قليلا ٠

عاد الزوج يتبع الصبى ٠٠ لقد نشط أكثر من ذى قبل ٠٠ يجرى من هذه الناحية الى تلك ٠٠ ينأى بنفسه عن هذا الخطر وذاك ٠٠ **حينئذ قال الرجل فى نفسه مؤكدا :**

ـ ان هذا الصبى لا يلعب ٠٠ انه بلا شك يعمل ٠

وفى هذه اللحظة فكر جديا أن ينقد الصبى أجره قبل أن ينسحب من الميدان ٠٠ وحين رفع وجهه وهم بأن ينادى عليه ٠٠ سمع صوت احتكاك عجلات وارتطام تردد صداه فى قلبه ٠٠ هرول الناس من كل فج ٠٠ توجه الأب مسرعا صوب الزحام ٠٠ تتبعه زوجته المذهولة ٠٠ وكان الطفل قد سكت عن البكاء ! ٠٠ شق الزوج طريقه بين الجمع ٠٠ ارتعد حين رأى الصبى منطرحا على ظهره ٠٠ الدماء تتدفق من أنفه وفمه ٠٠

فلتت من فمه تلك الكلمات :

ـ مستحيل ٠٠ أأنت ؟! ٠٠ مستحيل ٠

هز الصبى رأسه بصعوبة ٠٠ حاول أن ينتزع ابتسامة انفرجت لها شفتاه قليلا ٠٠ بعد جهد استطاع **أن يخرج كلماته من زاوية فمه :**

ـ معذرة يا بك ٠٠ لقد صدمتنى أول عربة شاغرة ٠

ثم نظر الصبى من حوله ٠٠ استقرت عيناه على زميل له ٠٠ وجه اليه كلمات ممطوطة :

ـ لو تذهب لأمى وتخبرها بأنى سأعود فى الصباح ٠٠ أرجو ألا تخبرها باصابتى ٠

زحفت الفجيعة الى قلب الزوج ·· طفرت الدموع من عينيه ·· ولم يتوان أن يخرج من جيبه ورقة مالية كبيرة ·· ربما كانت كل ما يملكه ·· أعطاها لزميل الصبى ذلك الذى تأمله فى تساؤل ·· لم يستطع الأب النطق ·· اكتفى بالاشارة ناحية الصبى المنكوب ·· هز الزميل رأسه دليل الفهم ·· عاد الزوج أدراجه بين الناس الذين أفسحوا له الطريق ·· يرمقونه بنظرات الفضول والامتنان ·· وقف أمام زوجته التى كان تئن حزنا وكمدا ·· وطفله الذى سكت ·· لعله فضل مواصلة بكاءه فى صمت ·· وزحفت الأسرة الصغيرة ·· أتى الى أسماعهم صوت عربة الاسعاف مجلجلا ·· ابتعدت الأسرة مواصلين طريقهم ناحية المحطة ·· يشملهم الصمت والكآبة ·· ولا يشعرون بالأمطار المنهمرة ·

امرأتان

شرخ فى جدار غرفة السطح المهترئة البناء ·· الشرخ غائر بمضى الأيام يزيد عمقا واتساعا ·· فى الغرفة امرأتان ·· الأم وابنتها ·· قمران الا من لفحات الأيام ونكبات الزمن ·· وحيدتان بلا رجل ·· قتل الأب فى حادث فترملت الأم ·· الابنة اليتيمة بلا زوج ·· الا أن بطنها منتفخة أمامها كالقدر !

··· تتنفس بصعوبة فالحمل ثقيل ·· فقط تئن أنات مكتومة ·· ليس بمقدورها أن تصرخ ·· فالصراخ مستحيل ! ·· تلف وتدور منفوشة الشعر ·· تتلوى وتترنح زائغة العينين ·· تتساند على الأشياء ·· تقعد لحظات على أريكة مهلهلة ثم تعود لحركتها الدائبة ·· لا تدعها الآلام ·· ألم فى القعود ·· ألم فى الوقوف ·· ألم فى كل حركة وكل سكنة ·· التعبيرات فى ملامحها تؤكد معاناتها من آلام جسدية ونفسية ·

زحف الليل الجليل .. أوقدت الأم مصباح الغاز .. بدا الضوء باهتا وبدت الغرفة كئيبة .. الليل ستار بظلامه .. الليل أيضا فضاح بسكونه وهدوئه .. قد تنفلت صيحة تشق السكون وترن فى المسامع .. الموت أرحم من أن يسعى أحد لنجدتهما .. الليل لباس لكل الناس .. الكل نيام .. وهما ساهرتان .. يقظتان .. الرياح تهب .. أسواطها تهرى جدران الغرفة العارية .. أصواتها أيضا ستارة .. تذوب فيها الصرخات .. ومن يضمن .. ان للحيطان آذانا تصيخ السمع .. قامت الأم تقطع الشك باليقين وتغلق النافذة والباب المتداعيين .. الأم والابنة .. كل تلوم نفسها .. كل تلوم الأخرى وتتهمها.. الاثنتان خائفتان من المجهول المرتقب .. عيناهما تتبادلان كلام وكلام .. ذبالة المصباح تتراقص .. أهداب عينى الأم تهتز .. تشيح بوجهها متحاشية نظرات ابنتها اللائمة .. تطأطىء رأسها .. لعلها تدرى تعبير الندم .. أو أنها تسلم بمسئوليتها عن الفضيحة .. ولعلها تخفى دمعة ألم حارة .. لن تلطف الدموع من لوعتها .. أيضا لم يفلح البرد فى تهدئة الانفعالات الملتهبة .. فاض العذاب النفسى على كاهل الأم .. ضيعها وهد كرامتها .. تهالكت منزوية فى أحد الأركان لتكون فى مأمن من نظرات ابنتها القاسية .. وجه الابنة فى الضباب .. الأم لا ترى عينى ابنتها .. شعاعها شواظ يحاصرها .. الموقف أقوى من تحملها .. لتفر من هذا الحاضر الكريه .. تطل فى عينى الماضى العميقة .. العربة تزمجر .. تنفث دخانا أظلم بياض النهار .. صوتها يرسل الرعب .. زعيق « فراملها » يرج كيانها .. ها هى تشق الزحام تفتش بين الأجساد .. تتلفت فى الوجوه المذهولة .. نظرت الى حيث يحدقون .. وقعت عيناها على جثة زوجها .. برزت عيناه من شدة الفزع .. أو من ضغط الفرامل ..

سحقته العجلات ·· دارت الدنيا وماجت فى عينيها ·· كل الدنيا عيون فزعة ·· دامية ·· غامت عيناها ·· اصطدمت رأسها بالأرض ·· رحمها الله باغماءه ·· أفاقت بعدهـــا تصك خديها وتقطع شعرها ·· تولول وتصرخ ··ولولت كثيرا ·· ملأت الدنيا صراخا وعويلا ·· بح صوتها ·· اليوم تكبت صراخها ·· كفى أن يئن داخلها ويئن ·· الحـاضر أشد قسوة وضراوة ·· لحظات الحـاضر محسوبة ·· معدودة ·· تحياها مرغمة بمرارتها وكوارثها ···

هذه اللحظات تكتسح فكرها ·· تدمرهـــا ·· تشدها من أحلام الماضى ·· تمرغ وجهها فى وحل الحقيقة اللزج ·· تدق برأسهـا فى حجر الواقع الصلد ·· تحطم الصارى فهوت الخيمة عليهما ·· وأيا كان وجـه الموت ·· ومهما كانت بشاعته الا أنه راحـة من الحياة ·· استراح الزوج وترك أنثيته لصدمات العيش وعبث الأقدار ·· أودع فى قلب الزوجة حسرة على شبابه وشبابها ·· انتقل فى هدوء الى دار الآخرة لينتقلا الى هذه الغرفة البالية ·· ليت توقفت عقارب الزمن وما حانت لحظة الموت ·· لم تجد حولها الا وليدتها المسكينة ·· أطلت فى عينيها لتستمد منهما الصبر والأمل ·· قدر أن تكون لها الأب والأم ·· عليها أن تحوطهـا بالرعاية والدفء · وأن تسعى لجلب الرزق ·· وماذا تعمل الا ما علمته الطبيعة للأنثى ·· وجعلت تتنقل من بيت لبيت لتزيل الأدران من ملابس الآخرين ·· وقد نأت بعملها عن مكان سكنها صونا لماء وجهها ·· وما كانت تدرى أن للأيام براثن وأنياب تنهش وتمزق بلا رحمة ·· ففى كل بيت شيطان يغرى ويغوى ·· وفى كل مرة كانت تدفع غوائل الشـــهوات الجائعة وترد سهام العيون النهمة بابتسامة رسمتها على شفتيها ·· رغبـــة فى اقتناص لقمة العيش ·

الرياح تعصف بالخارج .. سكتت الابنة عن الأنين قليلا .. وضعت راحتها على بطنها .

ـ آه منك وآه عليك أيها الوليد .. لن ترحمك قذائف النظرات الساخرة .

الحقيقة كامنة فى غرفة السطح .. لن تخبو طويلا .. فبعد ساعات ستتجسد فى هذا الوليد .. عفت الألسنة أن تلوكها لحين أن تلد الحقيقة .. وأبدا ما رحمتها العيون .. كم عرتها .. كم أهانتها وفتكت بكرامتها .

ـ لا .. لن ينالوا منك يا وليدى .. لن تمسك عيونهم .. سأصرعك .. سأحبس أنفاسك بيدى هاتين .

اتسعت عيناها وازرق وجهها .. وحش الآلام ينهش أحشاءها .. الطبيعة هائجة تزمجر .. والأشياء تصطك ... صرخاتها تتوقف فى حلقها فيزيد من آلامها ولوعتها .. سفحت عيناها بقايا دموع .

ـ لو توافيك المنية يا وليدى لاسترحت .. وأرحت .

الأم هاربة من الحاضر .. صور الماضى ما زالت تتألق فى مخيلتها .. خدعها البعض بالزواج .. لم ينطل عليها .. لم ينخدع الصيد .. كان يقظا .. وكان يعرف أن القصد ذبحه وتصفية دماءه .. كم حقدت على جمالها وفتنتها .. تمنت لو خلقها الله دميمة لتأمن شرهم .. تطلعت ذات مرة فى كسرة مرآتها .. رأت فى وجهها غضون حفرتها السنين والهموم .. وخديها باهتين .. كانا ناضرين .. تذكرت راحلها .. تنهدت من أعماقها ...

لم تهدأ أوجاع الابنة ·· احتـدت آلامها ·· ضـاقت بها الحجرة ·· الجدران تكاد أن تنطبق فوق رأسها ·· نظرت الى أمها ·· ما زالت غارقة فى ماضيها ·· نظرت الى الباب فى لوعة ·· لو تصرخ فتهدأ آلامهـــا ·· أو تنطلق الى الخارج فتلتقط أنفاسها ·· فى الخارج الجحيم بعينه ·· خافت أن يغلبها الصراخ ·· زحفت الى الأريكة العتيقة ـ التقطت خرقة من فوقهـا ·· حشرتها فى فمها ·· صورة أخـرى قفزت فى مخيلة الأم ·· كانت ماضية فى عملها حين اقتحم المكان رب البيت المتزن الوقور ·· لم يكن فى هذا الموقف متزنا ولا وقورا ·· فضحته عينـــاه النهمتان ·· دار بينهما حـوار لن تنساه ·· بيد مرتعشة قدم لها ورقة مالية ·· أنفاسه الحارة تلفح عنقها ·· ابتسامة الذئب على شفتيه ارتعشتين ·· ردت يده ·· أزاحته ·· ألح عليها ·· استعطفها ·· استرحمها ·· كاد أن يقبل يدها ·· ولعله انحنى ليقبل قدمها فسقطت نظارته فى وعاء الغسيل ·· تجهم وجهه ·· انتصب ·· أنفاسه تتلاحق ·· كشر عن أنيابه ·· التفت الى الباب ·· أدركت ما يجول فى خاطره ·· امتدت يده نحو الباب ليغلقه ·· لم تمهله فهجمت على يده ·· غرست فيها أسنانه ·· كبت ألمه وكتم صرخته ·· انقلب الى وحش كاسر ·· انطلقت من الحمام الى صالة البيت ·· لم يضيع الفرصة ·· جرى وراءها ·· لحق بها ·· انقض عليها ·· فلتت من تحته فهوى على الأرض ·· قبضت أصابعه كم جلبابها ·· آلمتها أظافره ·· قفزت فى الناحية المضادة فتمزق كمها وانخلع فى يده ·· عريت يدها وكتفها ·· أطلقت ساقيها الى الخارج ·· فرت منه ومن المنزل دون أجرها ·· وكان غداءها كسرة خبز وعشاءها نوما قلقا ·

علا أنين الابنة رغما عنهـا ·· اصـطدم رأس الأم بصخرة الحاضر ·· التفتت ناحيتهـا والشرر يقـدح من عينيها ·· قامت

اليها ثائرة .. جاء قصف الرعد يرسل الرعب .. اهتزت جدران الغرفة .. وقفت الأم الثائرة .. الرياح ترج الباب رجا ... تطلعت الى شرخ الجدار الغائر .. ذبالة المصباح ترتعش .. وكأن للمصباح قلبا يحس ويتألم ..

– لو تقتلع الرياح الحجرة .. ويبتلعنا السحاب .. ليتك ما كبرت .. وما ورثت جمالى .. فجمال الفقراء نقمة عليهم .. لو لم تصرى على الخروج لمساعدتى .. ليتنى رفضت خطيبك .. ولعشت عانسا .. ليتنى مزقته قبل أن يفتك بك .. يا حسرتى لقـــد نشل الجوهرة .. حنث فى وعـده .. خان ثم هرب .. ذاغ منا فى الزحام ...

الساعات تهـــرول .. الرعد يقصف .. والبرق يخطف الأبصـــار .. والعاصفة على أشدها تصارع الأشجار .. والأشياء تتدحرج وتتصادم وتتكسر .. الابنة أصابها الاعياء .. انكفأت على الأريكة .. وقعت الخرقة من فمها .. جرت الأم اليها .. عدلتها على ظهرها .. غطتها بالملاءة البالية .. دثرتهـــا بكل الخرق .. وجـه الابنـة قطعـة من الأسى .. خصـلات شعرها ملتصقة بجبهتها وخديها .. ذبالة المصباح تواصل ارتعاشها .. الآلام سكين يمزق أحشاء الابنة .. بأصابعها المتشنجة لمت قطعة كبيرة من غطائها .. دستها فى فمها .. برقت عيناها واتسعت .. انتفخت كل عروقها .. قفزت الأم .. جثت على ركبتيها .. مدت يدها تحت الملاءة كأنما ستتلقى وثيقة انقاذها من الموت .. أجزاء الطبيعـة تملأ الدنيـا صخبا .. صـدر الأم يعلو ويهبط وكذا ابنتها .. عينا الأم على مصـدر الوثيقة .. أخـذت الابنة نفسا عميقا .. توالت صرخاتها مكتومة .. خشنة .. متحشرجة .. أشبه بحشرجات الموت .. سكتت فجأة .. أسفرت الطـاقة

المحمومة عن مطر غزير .. تلقت يدا الأم رأس الوليد .. لم تطق صبرا فانتزعته بين لهثات الأم الصغيرة .. وأخيرا سقطت رأسها .. صوت الرعد كأنه طبول الشياطين .. نظرت الى شرخ الجدار .. فزعت كأن هناك عيون تترصدها .. لفت الوليد بعد أن قامت بعمل اللازم .. لم تلتفت اليه .. كانت عيناها على ابنتها .. وضعته بجانب أمه .

شردت الأم لكبيرة .. اتسعت عيناها .. عادت تسبلهما .. هزت رأسها نافية أفكارها الشيطانية .. تذكرت زوجها .. قرأت فى عينه نظرة احتجاج .. ليتها فقأت عين الخائن ... انقض الذئب على حملها .. لم يفد حذرها .. غافلها واقتنص روحها .

ـ الرحيل .. لا بديل عن الرحيل .

الناس نيام والمطر تشتد غزارته .. لن يسمع صوت الوليد الواهن .. مهما كان وهنه بالغد سوف يسمع .. وتفوح رائحة الفضيحة .. قامت الأم الكبيرة لتعد عدتها من أجل رحلة لا تعرف مستقرها ..

صحت الأم الصغيرة على بكاء وليدها .. اجترت أشق ذكرياتها وأكثرها مرارة .. مرت دقائق عدتها ساعات .. رأت المأساة بعينى خيالها .. برقت عيناها .. تشنجت يداها .. أدنت أصابعها من عنق الصغير الذى يصيح بجانبها .. سكت ونظر اليها .. لعله يتعرف عليها .. أو أنه يستحلفها أن تبقى حياته .. الرياح تزأر بشدة .. تدفع النافذة فتنفتح وترتطم بالحائط .. هجمت على المصباح فانطفأت الذبالة الواهنة .. فترت عزيمة الأم الصغيرة .. ارتخت يدها وسقطت بجانبها ..

كانت الأم قد جمعت كل ما ينفعهما فى مستقبل الأيام ·· وكانت صرة كبيرة حملتها فى يمناها ·· اقتربت من ابنتها ·· سمعت الابنة فحيحها ·· وضعت الأم الصرة على الأرض ·· سحبت الوليد وحملته على يسراها ·· فهمت الابنة ما انتوته أمها ·· قامت دون كلام ·· لفت نفسها بمساعدة أمها ·· وتقدمت الابنة ناحية الباب ·· التقطت الأم الصرة بيمناها ·· فى رهبة وحذر فتحت الابنة الباب ·· فاجأتها الأمطار ·· لسعت وجهيهما ·· الوليد ينعم بالدفء الذى يبثه صـــــدر جدته ·· لم يشعر بأسواط الأمطار ·· فقط كانت تملؤهما الرهبة والخوف ·· طغت دقات قلبيهما على كل الأصوات ·· قلب الوليد يدق فى رتابة ·· تحسست الأقدام الدرج ·· تشجعت بفضل سكوت الوليد ·· لعله أدرك حالهما ··

ودعا المنزل ·· قدماهما « تطرقع » فى المياه ·· الأمطار تهطل بوحشية ·· البرق ينير السماء والرعد يدب فى جنون ·· لا حديث الا أنفاس تتردد ·· وعيون تتلفت مذعورة ·· المرأتان كأنما يعيشان أحداث حلم مزعج ·· تنتقل قدميهما فى تثـاقل كأنها تسير فى الجحيم ·· الأم تحث ابنتها وتدفعها على الاسراع ·· كلما تباطأت الابنة تنهرها الأم بنظراتها النارية ·· الابنـة تنظر الى وليدها ثمرة سقطتيـا ·· واصـلا المسير ·· واصلت السماء أمطارها على رأسيهما ·· التصقت الملابس بجسديهما ·· تنزلق حبـــات المطر على وجه الابنـــة ·· تحلق بخيالهـــا فى المستقبل ·· المستقبل مظلم شديد السواد ·· غامض ·· الرهبة تتملكها ·· المجهول يفزعها ·· بزاويتى عينيها حاولت أن تنظـر لوليدها ·· أمها تخفيه ·· كم يسعد الأمهات بهذا اليوم ·· وكم

يكونوا كملائكة تتطلع اليها العيون وتتعلق بها ·· ما أشـــد أساها ·· لحقت بأمها ·· لعب لسانها هامسا :

ـ اعطنى اياه ·

لو تسنح الظروف لصفعت الأم ابنتها ولأوسعتهـا ضربا وركلا ·· ولمسحت بها الوحل ·· واصلت السير قبل أن ينفلت زمام أعصابها ·· الأم الصغيرة تفكر فى صغيرها ·· هل هـــو ذكر ·· ؟ ·· أم أنثى ؟؟ ·· بالطبع سيكون جميلا فاتنا مثلهـا ·· كم كان بودها أن تكحل عينيها بنظرة اليه قبل الوداع ·

ـ ألست أمه ·· ألم ألده منذ وقت قصير ؟

ـ بجانب أحد البيوت الشـــامخة انحنت الأم ووضـــعت الصغير ·· أدمعت عينا أمه ·

ـ عليك ألا تكف عن الصراخ والاستغاثة ·· ولا ريب ·· ستنال رحمتهم حين يجدوك وحدك ·

شعرت الابنـة بروحها تكاد أن تنفلت من جسـدها ··· لم تستطع المقاومة ·· اندفعت نحو الوليد ·· لم تمهلها يد الأم التى دفعتها فى صـــدرها ·· ثم أمسكت بتلابيبها ·· ضـاعت محاولات الابنة سدى ·· جرت الأم ابنتها جرا ·· سارا قليلا ·· الأم لا تستطيع أن ترى الطريق ·· الابنة تنظر الى وليدها ·· أوقفهما صياح الصغير ·· هرولت اليه الجدة قبل الأم ·· انحنيا عليه ·· نظرات والهة تسددها الأم الى صغيرها ·· بلغت روحها حلقومها ·· أصـدرت أنينا ملتاعا ·· عينـا الأم تصدر بريقا مخيفا وتدفع ابنتها فى قسوة بين فحيحها وتهديداتها ··

الابنة أشد عزما .. استطاعت أن تنتشل صغيرها وتعانقه .. ثم تنظر الى أمها فى لوعة .. وعيناها تقول فى صدق وتأثر :

ـ وما ذنب الصغير ؟؟

حين أشرقت الشمس .. وفى مكان آخر .. كانت المرأتان تحطوان بخطوات مترددة .. آملتين أن يجدا بين ربوعه الأمان .

فهـــرس

الوديل	٧
من قتلها	١٤
عم صـالح	١٩
ليلة الوداع	٢٤
الزائر الأسـود	٢٩
وعـد السجين	٣٧
لقـــاء	٤٤
العصـــا	٥١
عم عدوى	٥٨
الرحيـــل	٦٦
الحـدباء واللص	٧٢
الفـــرار	٨١
مـذام فوزية	٩٠
المعذبون	١٠١
هذا الصبى	١١١
امرأتان	١١٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٢٥٥٢

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٩٤١ ـ ×